ديوان الرافعي

نظمه

مصطفى صادق الرافعي

وشرحه

محمد كامل الرافعي

« الجزء الثالث ١٣٢٢ — ١٣٢٣ هـ »

وهو تمام الديوان

مطبعة الاخبار بجوار وابور السنبورة بالفجالة . بمصر

مقدمة الكتاب

نوع من نقد الشعر

الشعر تصوير عالم حي من المعاني والالفاظ فالمُجيد من جعله مختصراً من صورة العالم كله . ولا بدّ فيه من شعاع من الروح اذا تجردت له النفس امتزجت لطافتها بلطافته ، وربما أُخذ المرء بلذة التصوّر فظنّها في مكان نفسه وحسب نفسهُ في مكانه

ونحن ناظرون الى نقد الشعر من هذه الجهة التي يتمثل فيها حيًّا من الأحياء ، تتنازع أنواعهُ البقاء . فقد أفاض المتقدمون في الاسباب التي يحسن بها ما يحسن من ظاهره ويقبح منهُ ما يقبح . وجردوا الكتب في طبقات الالفاظ ومخارج الاشعار وسقطات الكلام وألطفوا النظر في وجوه المعاني ومواضعها ، وأصابوا منها صفة التمكّن في مبادئها ومقاطعها ، وانك لتجد فيما وضعوه من علوم البلاغة البحر الزاخر بهذه الامواج ، والفلك الدائر بتلك الابراج

غير أن الفرق بين باطن الشعر وظاهره كالفرق الذي يذكره أصحاب « الكلام » بين المعجزة والحيلة . وانظر ما حدّث به أبو ذكوان قال : أُدخلتُ الى ابراهيم بن العباس وهو بالاهواز لخدمته فقال ما تقول في شعر النابغة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعطاكَ سُورَةً ... تَرى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يَتَذَبْذَبُ

بأَنَّكَ شَمسٌ وَالمُلوكُ كَواكِبٌ ... إِذا طَلَعَت لَم يَبدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ

فقلت ما عندي فيه الا الظاهر المشهور . يقول : « فضلك على الملوك كفضل الشمس على الكواكب » فقال نفهم معناه قبل هذا . . . انما يعتذر الى النعمان من مدحه آل جفنة الغسانيين وتركه له ويريد أن له في مدحهم عذراً . ألا ترى قوله :

وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ امْرَءًا لِيَ جَانِبٌ مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَحُكْمِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يقول : لاتلمني على شكري وقد أحسنوا اليَّ اذ لجأت اليهم وان كانوا أعداءك كما أحسنت الى قوم شكروك عند اعدائك . فقد أحسنوا ولم يذنبوا . ثم قال اعمل على أني أذنبت فمن أين تجد من لا يذنب ؟

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ
فَإِنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ

يقول : مثلك يعفو ويحسن وان كان عاتباً وفي كرمك مايفعل ذلك ولك العتبى والرجوع الى ما يجب . ثم فضله عليهم فقال: «ألم تر أن الله أعطاك سورة .» البيتين

يقول ماصلحت أنت لي فاني لا أريد غيرك من الملوك كما أن من طلعت عليه الشمس لم يحتج الى النجوم . اه

فمثل هذا الشرح انما هو تشريح النفس لاجزاء الكلام ، ومثل ذلك القول انما هو غاز العقول الذي يضيء في أسنَّة الاقلام

يرتقي المبتدئ في الشعر من مطلق النظم الذي هو النمط المصطلح عليه في اقامة الوزن الى الفكر فيما يجيء به ، فاذا صارت له هذه المنزلة أدته الى الخيال ، فاذا ارتفع شيئاً بعد ذلك فهو في جوّ الروح الذي يسمونهُ التصوّر وهناك حدُّ الطبيعة القائم ، وحجاب الغيب القاتم . فيكون في منزلة بين الوحي والالهام ، ويمر هناك خاطره على النفوس كما يتنقل على الارض ظل الغمام

وتلك هي أطوار الشعر من طفولته التي يعبث فيها بكل شيء ولا يفقه شيئاً ،

الى شبيبته التي يتماسك فيها وقاراً ويندفع ، الى شدته التي تعتصم بها الحكمة وتمتنع، الى مشيبه الذي هو نور الجمال ، والحظ المقسوم له من الكمال

والشاعر في الطوْر الاول كالصبي في يده القوس يُغرِقُ في نزعها مايُغرِق ثم لايكون الا أن يسمع لها ارناناً ضعيفاً فلا هوغلب وهمه . ولارمى سهمه، فاذا اشتد ساعده وانتقل الى الطور الثاني كان في منزلة بين الخطاء والصواب ، فاذا بلغ الى الثالث أحكم التسديد ، واستوى عنده في الاصابة ما كان من قريب وما كان من بعيد ، ومتى صار الى الطوْر الرابع وهو منتهى كماله حسب توزُّعَ الطير في الجوّ لمخافته ، وتفرق الوحش في البر لمهابته ، وصارت نظرته هي السهم لانه في أثرها ، ولفظته عن القنيصة هي القضاء لانه في خبرها

وما يكن من عيب في الشاعر فلن تجد فيه كتسلُّط فكره عليه وعبثه بقوافيه فتراه ينظم الكلمة أبياتاً لامعرفة بين أولها وآخرها ثم يجيء بعد جفاف الريق وتخلخل اللسان وانقطاع النفس فيمضي فيها اختياره ويأخذ في التوفيق بينها وهي متنافرة، ويعمل على التعريف وهي لاتزال متناكرة ، فَمَثَلُ الكثير من هذا الشعر مَثَلُ الكلمة المفردة اذا نطقت بجملتها أدت اليك معناها على أتم ما يكون فاذا فككت أحرفها ولفظتها حرفاً حرفاً انقلبت الى قول هراء ، ولم تزد على أن تكون أصواتاً ذاهبة في الهواء

وأولئك هم الذين قال في شعرهم ابن ميادة انه « كلفة وتملُّح »[1]

فاذا لم يكن فكر الشاعر عند ارادته ولم تكن ارادته عند اتجاه عواطفه أُخذت عليه منافذ القول فاختل ، واضطربت جهات رأيه فانحل ، وصار من نضوب المادة

(١) ذلك قوله :

فجرنا ينابيع الكلام وبحره ... فأصبح فيه ذو الرواية يسبحُ
وماالشعر الاشعرقيس وخندف ... وشعر سواهم كلفة وتملح

في آخرة أمره كمن يكتب بقلم ليس عليه الا مسحة من رَدْعِ المداد فكلما كدَّه جمد، وكلما هزه ركد . فاذا كتب مع ذلك جاء الحرف مفرق الجهات لثماً في الحروف فلا هو كتابة ولا هو محو

ولم أرَ فيما هو بسبب من هذا النوع كاضطراب أبي كبير الهذلي في مطلعه الذي لم يكن في الشعر أصبر منه على سوء عبث صاحبه . وهو قوله :

أزهير هل عن شيبة من معدلِ أم لا سبيل الى الشباب الأول

ثم اضطرب فيهِ مرة أخرى فقال : ازهير هل عن شيبة من مصرف . ثم عاد فقال : أزهير هل عن شيبة من معكم . أي محبس . وروى الاصمعي في الرابعة انه قال من مقصر . . . ورويت له خامسة من معكر . . . وهي بلة هذا الطين

ولا أظن ان شاعراً يتخلص الى مثل هذا ولكنه على كل حال نوع من ضغط الفكر على الارادة وهو قريب كما ترى من ضغط الحمى على الفكر فكلاهما هذيان وان كان منه معقول وغير معقول

ولقد يحار المرء اذا نظر في شعر العرب ورأى الكثير منه لا يتعدى الوزن والتقفية ولكن اكبر حظ القوم من شعرهم ان ينقلوا الكلام الى نمط يتفق مع النغم كما ترى في غناء هذه الايام فهو لا يزيد عن سائر الكلام الا النمط والايقاع بحيث انك لو سمعته وقد جرد من ألحانه لخرجت منه على حساب مادخلت فيه لا طرب ولا عجب.

والغناء على أي وجوهه ينقل النفس من تنقيها بين الالفاظ عما هو حسن وغير حسن الى تحركها على الالفاظ نفسها . وانما النظم العربي اوزان موسيقية . فكل من جاء بعد العرب من الشعراء لا ينظر الا في أعطاف اللفظ وتلاحم الكلمات وانتظام تلك المعاني القديمة فهو من الجاهلية الثانية وان كان الاولون قد سموا جاهلية لعبادة الاوثان ، فهؤلاء لعبادة الاوزان

ويكاد شعر العرب ينحصر في غرضين الشاهد والمثل فقد كانوا لا يطلبون من

الشعر غيرهما كما لايطلبون من الخبر الا الأيام والمقامات . وكان أبدع مايروج عنهم من أجل ذلك مساق الخبر ومضرب المثل ومقطع الحكمة ، والحكيم فيهم يومئذ نبي

اعتبر ذلك بما تجده في أخبار الرواة اذا أرسلوا عنهم بيتاً مما نحن بصَددٍ منهُ وهو شيء مستفيضٌ في كلامهم فقد كان أبو عبيدة والاصمعي ينشدان بيتي الطرماح وخيرهما قوله فيمن يضرب في الارض

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلادُ كَأَنَّهُ   سَيفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

ويقولان هـذا أشعر الناس في هذين .(١) وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لوضرب زهير أسفل قدميهِ مائتين على أن يقول مثل قول النابغة:

فَانَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي   وَاِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ (٢)

ماقاله . . . وزهير أشعر الجاهلية في كثير من شعره

وعن الأصمعي أن أبرع بيت قالتهُ العرب قول أبي ذؤيب :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ اِذَا رَغَّبْتَهَا   وَاِذَا تُرَدُّ اِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

---

(١) البيت الأول قوله وهو كما ترى..

مجتاب حلة بُرجُد لسَرَاتِهِ   قدداً وأخلف ماسواهالبرجدُ

(٢) انتقد الاصمعي هذا البيت فقال أما تشبيهُ الادراكِ بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانهِ . وانما كان سبيله أن يأتي بما لا قسيم له حتى يأتي بمعنى منفرد اه

وليس كما فهم فان الليـل والنهار وان تساويا فيما يدركانهِ الا أن الليل مضلٌ يأخذ بالمذاهب . ويحبس الذاهب ويقبض البصر غير ما فيهِ من الروع والهول وتعفية الاثر وهو ما أراده النابغة فان هذا البيت من بعض قصائده التي يعتذر فيها الى النعمان

ومن هينا تجد مثار الخلاف بينهم في قولهم هذا أشعر الناس في كذا وذلك أشعر الشعرآء . وغيرهما أشعر الانس والجن . وهلم جرّاً

وما عدا ذلك ففي شعرهم من الطُّرَف المُستنكَرة مايغلظ على الطبع ويثقل على الذوق فمنهم من يشبه وجه الحسناء ببيضة النعام . ومنهم من يشبهُ جسمه الناحل بأشلاء اللجام . . . الى غير هذا مما تهجّنهُ الحضارة ولهم مع ذلك وجه عذر فيهِ ومُنفَسَح للوم عنهُ . وانما ذكرناه مأخذاً على قوم جاؤا بعدهم فجعلوا الشعر صُوَراً من تلك المعاني تتخطر في حليّ من الالفاظ على أكثرها صدأ الركاكة وغبار القدم . . . فتراجع الشعر بينهم وتعطّلت قرائحهم حتى أصبحوا في اتصالهم بمتن أولئك الشعرآء كما شبه أبو هفان شعر آل أبي حفصة الذين كان آخر شعرآئهم متوّج وكان رجلاً ساقطاً وذلك في قوله : « شعر آل أبي حفصة بمنزلة الماء الحار ابتداؤه في نهاية الحرارة ثم تلين حرارته ثم يفتر ثم يبرد . وكذا كانت أشعارهم الا ان ذلك المآء لما انتهى الى متوّح جمد . . . »

وما زال هؤلاء وأمثالهم يأخذون الشعر على المنشط والمكرَه ويدسونهُ في أسماع الناس وصفاً وغزلاً ومديحاً وهجاء ولا أرى لهم في ذلك من مثل الاماقيل عن مروان الأصغر بن أبي الجنوب من انهُ دخل مرة على اشناس وقد مدحهُ بقصيدة فأنشده اياها فجعل اشناس يحرك رأسهُ ويومئ بيديهِ ويظهر طرباً وسروراً وأمر له بصلة فلما خرج قال له كاتبه رأيت الأمير قد طرب وحرك رأسهُ ويديهِ لما كان يسمعه فقد فهمهُ؟ قال نعم . قال فأي شيء كان يقول ؟ قال ما زال يقرأ عليّ «رُقية الخبز» حتى حصل ما أراد وانصرف . . . (١)

---

(١) قالوا اول من تكسب بالشعر النابغة الذبياني حين قبل الصلة على شعره وخضع للنعمان (فسقطت منزلته) وأثرى . وانما كانت العرب قبله تقول الشعر فكاهة اومكافأة على يد

واعجب شيء رأيته في تاريخ الشعر انهُ كان عصرٌ يسمون فيه المولد (بالرقيق) ثم صار هذا الاسم عَلَماً بالغلبة وأطلق على الغزل السبط والرثاء السائل ثم عدوا منه انواعاً عرفوها (بالالفاظ الملوكية) وأجروها في بعض التشبيهات والاوصاف وما اليها . كأن الشعر كان مقضياً عليه أن يبقى في الموتى حتى يموت الاحياء . وأن يكون أهله نُصُباً على جانبي تلك البطحاء التي كان فيها شعراء الجاهلية .! وحسبك أن اعداء ابن المعتز لم يزروا على غير نحته وسبكه ولم يحاولوا اسقاطه الا من بينهما وهو بالاجماع في السطح من طبقات الشعراء

ومنتهى الحمق أن يتخذ مولد ذلك النمط الجاهلي فان السر في بقاء شعر الجاهلية والمخضرمين بعد أهله حاجة الرواة والعلماء الى الشاهد منهُ فلما اسقطوا الاستشهاد بكلام المولدين لما يدخل عليهم من الغلط ولضعف الثقة بلغتهم سقطت هذه الطبقة بعلة طبيعية وهي سنة (بقاء الانسب)

والعرب انما ابتدأت الشعر بما كان عندها من جزالة اللفظ واتقان بنية القريض واحكام عقد القافية ونحوها مما هو طبيعة فيهم فكان على من يخلفهم أن يأخذ في زخرف البناء وزينته بعد ان يكون قد تم منهُ مالم يتم وهو الذي فعله أبو تمام والمتنبي ومن في طبقتهما من أهل القوة والكفاية ثم كان على من يجيء بعد هؤلاء ان يزيدوا فيه من تحف عصورهم ومدنيتها طبقة بعد طبقة حتى يكون ذلك الموضع ديواناً للتاريخ ترتب فيه العصور . وتقف على أبوابه الدهور . ولكننا نجد الى عهدنا طوائف تنقض ذلك البناء وتقيم على أساسه فلا يلبث أن يقع الاثنان معاً

والشعر اقسام كانت محدودة على مانوعها ابو تمام في حماسته ثم جاء من تفنن فيها وذهب بها كل مذهب كابن ابي الاصبع وغيره . وقرأت ان البديع الاسطرلابي رتب ديوان ابن حجاج[1] على مائة واربعين باباً وواحد . ثم قفّى كل باب

(١) ابن حجاج هذا رجل من شعراء العراق كان في القرن الرابع للهجرة

وجعله في فن من فنون شعر الرجل

ولكن الذي قُطع بالشعر العربي دونهُ انما هو النوع الذي يسميه الافرنج بالشعر القصصي ومنهُ الملاحم الكبرى عندهم كالالياذة وغيرها . والبسيط منهُ نادر في العربية بل هو في بسطتها كالظل شيء كلا شيء . حتى ان أبا هلال العسكري لما أورد في كتابه الذي سماه (ديوان المعاني)[1] أبيات وضاح اليمن المشهورة التي أوّلها:

قَالَتْ أَلَا لَا تَلِجَنْ دَارَنَا   إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرُ

وهو يذكر فيها محاجَّة بينهُ و بين صاحبتهِ في مدافعة الوصل وحكم الدلال متوخياً اثارة البرهان . وجلاء المعنى على وجه البيان . عقبها هناك بقول المؤمل :

وَطَارِقَاتٍ طَرَقْنَنِي رُسُلاً   وَاللَّيْلُ كَالطَّيْلَسَانِ مُعْتَكِرُ

وهي مدافعة كالأولى . ثم قال العسكري « وهذا أصعب ما يرام من الشعر ولا يكاد يوجد في هذا المعنى أحسن من هاتين المقطوعتين »

ذلك لان الشعر العربي روح هذه اللغة وهو من اللطافة بحيث لا يُضيء فيه المعنى الا بشعاع من الخيال . فاذا اردت أن تقيم منهُ حديثاً سَوِيَّ التركيب ، كامل الترتيب ، زوت عليك القافية وتقطع الشعر فلا تدري من أين تأخذ ولا من أين

وكان كثير السخف في شعره يمزجهُ بلغات الخلديين والمكديين وأمثالهم وهو النمط الذي انفرد بهِ

وما عدا ذلك فهو كما قال الثعالبي صاحب اليتيمة « مُلح ابن حجاج لا تنتهي حتى يُنتهى عنها » واسم هذا المجموع الذي رتبهُ الاسطرلابي (درة التاج . من شعر ابن حجاج)

(١) اختار العسكري هذا الديوان من شعر الشعراء الى أيامهِ وجعله في اثني عشر باباً

تدع . كالنور اللطيف تحاول أن تلقي عليه كثافة الغطاء فاذا هو منبسط فوق ما تلقي فمها تأتِ من ذلك لا تكون قد صنعت شيئاً

ورأس هذا الامر عندنا على ما يقول شبيب بن شبة « حظ جودة القافية وان كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت » . فلا بدّ لهذا النوع في لغتنا من وضع جديد يكون وسطاً بين النثر والنظم حتى يحمل الالفاظ والمعاني معاً فيتعلق فيه الشعر بالنفس ويمتد السياق على النفَس كما فعل الاندلسيون في وضع الموشحات لحاجتهم التي بعثتهم عليها والعصر يومئذ لهو وترف ، والادب مجد وشرف

وأساس هذا الشعر سلامة الذوق فهي الحاسة التي تتجه بها النفس الى المعاني وتنقلب عنها ، بل هي العين المركبة في الروح تجمع جمال الطبيعة في نظرة واحدة فتنقله الى الاحساس كما تُمد العين الباصرة بمرئياتها وهم المخيله . ومن الشعراء من يكون سقيم الذوق فهو في نظره الى الشعر مع فساد ذوقه كاللص في نظرته الى الحسناء اذا وسوس حليها في مسمعه . يغفل منها عما ينتبه اليه الناس وينتبه لما يغفلون عنه

ومن هؤلاء طائفة الشعراء المُصنَّعين وهم الذين لاحظ لهم الا في (الصنعة الشعرية) وفنونها لاتعد فيجيئون بالقصيدة كلها رُقَع ثم هم يتنافسون في هذا التصدير ولايدرون ان الثوب الساذج من قطعة واحدة خير من هذه الرقع كلها وان كانت من أنفس الخز والديباج . وانظر مايكون موقع هذا الثقل من نفوس الادباء فقد اراد ديك الجن الشاعر مرة أن يهول على دعبل ويقرع سمعه فانشده بيتاً مضطرباً . . . فقال له دعبل اسكت فوالله ماظننتك تتم البيت الا وقد غشي عليك او تشكيت دماغك . ولكأني بك في جهنم تخاطب الزبانية اوتخبَّطك الشيطان من المس

والعلة الطبيعية في بؤس الشعراء هي ذلك الاحساس المتصل بالنفس فكلما غمرته المؤثرات تحول منه بمقدار الضغط بخار روحاني ينتشر حولها وذلك هو الشعر .

وقد ترى النفس فيه ضوءاً كأنه تبسم القلب الحزين الذي تشابه جلال الطبيعة بجلاله . لانها مخلوقة في رأي النفس على مثاله

وقد يكون للشاعر متّسع في غلوه وكبريائه على هذه الطبيعة الا في العواطف التي هي روابط القلوب بالقلوب . وموضع الصلة بين ما في الوجود وما وراء الغيوب فقد يضرب في كلامه بسيف لم يُطبع . ويرمي بقذيفة لم تصنع . ويقطع من خيوط الحياة ما لم يقطع . ولكنه فيما دون ذلك لا يقدر ان يذكر الحب من قلب لم يحب . ويثبت للشيء الذي لم يجر عليه حكم الوجوب شيئاً مما يجب . فاذا هو فعل اطفأت الطبيعة من رُوائه . وقامت عواطف الناس شاهدة على كذبه في ادعائه . وقد ذكروا أن كسرى سمع الاعشى يتغنى ذات يوم بقوله :

أَرِقْتُ وَما هذَا السُّهادُ المُؤرّقُ وَما بيَ منْ سُقمٍ وَما بيَ معشقُ

فقال ما يقول هذا العربيُّ ؟ قالوا يتغنى بالعربية فأمر أن يفسروا قوله فقالوا زعم انه سهر من غير مرض ولا عشق . فقال هذا اذاً لص . . . . ؟

وللشعر اساليب تنتجها القرائح (١) ولكن جماع القول فيها أنها تمثيل للطبيعة فكأن الشاعر ينقل مناظر الارض الى الروح العالية التي ترسل الى الجسم شعاع الحياة فتزيد تلك المناظر في قوة الشعاع الالهي فلا يتصل بالجسم حتى تفيض هذه القوة على القلب فتهزه الهزة التي نعرف منها الطرب

فأيّ امرئ اجتمعت له قوة التمثيل وسلامة الذوق وهما يكونان عند سعة العقل وسمو الطبع فذلك الذي هو في معناه بين الملك والانسان وهو الشاعر

---

(١) رأينا أن نفرد هذا الموضع بالكلام لانه تاريخ العقول ولعل ذلك يكون ان شاء الله في مقدمة ديوان النظرات

الكلمة الاخيرة

للشارح

هذا هو الجزء الثالث وهو تمام الديوان . وانما كان هذا الديوان نوعاً من أنواع الشعر تمثلت فيهِ أفكار صاحبهِ وعواطفهُ في زمن من عمره فلا نستطيع ان نقول الاَّ أن هذا النوع مع شهرته النادرة كالثمرة متى جاء وقتها وحان قطافها انفصلت عن غصنها وتمَّ بذلك عامها ولا يكون انفصالها الاَّ لتعود فتظهر للناس أنضج ما كانت بما يُبذَلُ في نشأتها الثانية من العناية

وهكذا صحَّ عزم شاعرنا على أن يضع ديوان « النَّظَرات » وان ينحو فيهِ منحىً جديداً وينزع الى مقصد من المعاني بديع ، ويجري على نمط من الشعر رفيع

ولا نجد الآن وجهاً للكلام عن الديوان الجديد فالايام ان شاء الله مقبلةٌ ولكنا أردنا أن نُبين هنا عن كلمة من العذر اضطرنا اليها عارض طرأ

وذلك أن هذا الجزء كان قد تمَّ من نظمه نحو ثلثيه قبل أن يصدر الجزء الثاني من المطبعة لانه تأخر فيها عن الأجل المضروب له سنة ونصفاً لأسباب ليست من جهتنا

ثم انه بعد ان صدر الجزء المذكور واستأنف الشاعر اتمام الديوان

عرضت أحوال ، اضطرتنا الى الانتقال ، وشغلتنا بكثرة الاعمال ، فلم يتيسر لنا بعد ذلك اتمام الشرح على ما بقي من النظم

فما كان في هذا الباقي من نادرة تاريخية ، أو نكتة أدبية ، أو كلمة «كما يقال» لغوية ، فقد تولّى الناظم بيانها عنا وذلك قليلٌ في الديوان

وقد بقي علينا ان نشكر للفضلاء ثناءهم على هذا النمط من الشرح فالأدب شيمةُ كل فاضل وان نوجّه بعد ذلك الى الأدعياء كلمة الفيلسوف ابن حزم التي يقول فيها «لقد طال همُّ من غاظه الحق» ولا نزيدهم على ذلك شيئاً . والحمد لله أولاً وآخراً ؟

«محمد كامل الرافعي»

الباب الاول

في

التهذيب والحكمة

قال

في حالة مصر الاجتماعية لسنة ١٩٠٥

على أيّ دهرٍ مصرُ لا تتندَّمُ ... وفي أيّ دهرٍ مصرُ لا تتظلَّمُ (١)
بنوها بنوها أيُّما تكُ صدمةٌ ... تقلّبهم للجانبين فهمُ همُ (٢)
وما يتّقون البؤس لكنهم متى ... تعضّ بهم أنيابه يتألموا
ويُبطرهم عهدُ الرخاء فان مضى ... فسهلٌ عليهم بعدُ أن يتندموا

(١) في هذا البيت على اختصاره وصف مصر من يوم انشق عنها الزمن الى عهدنا ولا تجد شاهداً على ذلك اصدق من التاريخ

(٢) البيت الاول في وصف مصر وهذا في وصف المصريين وقد اختلف فلاسفة المؤرخين في تعليل هذا المعنى حتى أن بعضهم جزم بأن العلة طبيعية في الاقليم ونحن لا نتعرض لشيء من هذا لا نفياً ولا اثباتاً . وأيّ في البيت شرطية ومقطعه تفسير لمطلعه

كذي مرضٍ في جاهلي الطب ان يعش　　يعذبه أهلوه والا ترحموا (١)
وما برحوا ان خاذلتهم ظنونهم　　وأعمالهم مدوا المنى وتوهموا (٢)
وان سقمت آراؤهم في ملمة　　تحامل فيها الظنُّ والظنُّ أسقمُ
فرادى وأحداثُ الزمان جميعةٌ　　وقد علموا سرَّ الزمان وعلّموا
فمن حادث في حادث عند حادث　　كأنك للأحداث يامصرُ معجمُ (٣)
كأنَّ زماني شاعرٌ جاش طبعهُ　　والأفلاكِ قرطاساً فما زال ينظمُ (٤)
كأنَّ قلوب البائسين محابرٌ　　لأقلامه فيما يخطُّ ويرقمُ
فيمتصُّ ما فيها من الروح مدَّةً　　فأخرى الى أن تزهقَ الروحُ منهمُ

* * *

ومما يزيدُ الهمَّ لهفاً وحسرةً　　تصايحُ فتيانٍ بنا أن تقدَّموا

---

(١) الجاهلون بالطب يحركون المريض دائماً الى جانب الموت كلما اقلقوه بتجاربهم ونحوها فاذا قضوا عليه بجهلهم ترحموا وهي كلمة لا تنفعهُ بعد العذاب الذي وجده منهم وان كانت « رحمة »

(٢) هذا البيت والذي بعده في وصف العجز الاجتماعي الذي يصور الظن بصورة اليقين

(٣) المراد من هذا النسق أن الحوادث متسلسلة وقد كان العرب لا يزيدون في هذا النحو على تكرار الكلمة ثلاث مرات وهو وارد في بعض الاحاديث الشريفة . والمعجم هو المصطلح على تسميته اليوم (بالقاموس)

(٤) جيشان الطبع تحركه . وهذا الفصل من التمثيل هو حالة الشطر الاكبر من الدنيا اي شطر الفقر من لدن الحياة الى الموت والبائسون جمع بائس وقولهم بؤساء خطأ

فسبحانك اللهمَّ بلبلْتَ قومنا   فما يفهم المسكينَ فينا المنعَّمُ(١)
يريدون أن يجري الى مُرتقى العلى   رجال ضعافٌ ان جروا يتحطموا
ويبغون أن نرقى وهاتيك حالنا   وما عندنا الاَّ لأسفلَ سلَّمُ
كمن يُكرهُ الاطفال أن يحفظوا الذي   يكلمهم من قبل أن يتكلموا
ومن أوقرَ السُّفْنَ المتاعَ بمَصنعٍ   ولمَّا يُتموها فكيف تعوَّمُ(٢)
يقولون هبُّوا وانفضوا سِنةَ الكرى   وما نحن لكنَّ الليالي نوَّمُ
زرعنا وآفات السماء بسِربها   مُحلِّقةٌ فوق المزارع حوَّمُ
وجفَّ لسان النيل مما شكا الأسى   ومصر لهذا النيل من عهدها فمُ

(١) البلبلة اختلاط الالسنة ومرجع هذه اللفظة الى حكاية بناء مدينة بابل وبرجها التي روتها التوراة في الاصحاح الحادي عشر من سفر التكوين وقد أوردها ابن العبري في تاريخهِ بنوع من التهذيب فرأينا ان ننقلها عنهُ غير متعرضين لها . قال في ترجمة (أرعو بن فالغ) وفي سبعين سنة لارعو قال الناس بعضهم لبعض هلموا نضرب لبناً ونحرق آجراً ونبني صرحاً شامخاً في علو السماء ويكون لنا ذكراً كيلا نتبدد على وجه الارض فلما جدُّوا في ذلك بارض شنعار وهي السامره قال الله تعالى هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شيء يهتمون بهِ سوف أفرق لغاتهم لئلاَّ يعرف أحدهم ما يقول الآخر فبدد الله شملهم على وجه الارض وأرسل رياحاً عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت لغات الآدميين ولذلك دُعي اسم ذلك الموضع بابل

(٢) المصنع المكان الذي تبنى فيه السفن وأوقرها ملأها . وهذه الابيات هي تمثيل طور التعنت ومشابهة الاصلاح في الامم وهو طور الاقوال دون الاعمال

جهدنا فلا من باع أيسر بعدها | ولا من أضاع القطن باليسر يحلمُ
يظل الفتى والشيخُ والطفلُ والنسا | جميعهم بين النباتات يخدمُ
الى أن يروها قائمات كأنها | عليهم براحات السعود تسلّمُ
الى أن يروا أزهارهنّ كأنها | ثغورُ ملوكٍ اذ تُحَيّى وتبسمُ
الى أن يروا أقطانهنّ كأنها | لدامي جروح الفقر والبؤسِ مَرهمُ
الى أن يروها ناصعات كأنها | لدى ظُلَمِ الآمال في العين أنجمُ (١)
هناك وجوه النحس تلقي لثامها | وبالقطن كانت بينهم تتلثمُ (٢)
هناك فاما أن ترى شبهَ مُعدِم | والاّ فمأخوذٌ الى البؤس يُعدَمُ
وما الشؤمُ الاّ ما يسمى تمدناً | ولكنه في ساكني الريف أشأمُ
تغيّر فيهم كل خُلُقٍ فكيف لا | يكون الغنى أيضاً تغيّر فيهمُ (٣)

(١) الناصعات شديدة البياض وهذا الفصل تمثيل لنبات القطن الذي هو « بياض وجه الفلاح المصري » وقد ابتلي بافات كالدودة والندوة وغيرهما مما هو معروف

(٢) النحس ضد السعد وقد نسبه القدماء الى كواكب معروفة وتكلموا فيه كثيراً وربما نلم بشيء منه في باب الاغراض والمقاطيع . وا كثر مايكون اللثام في عصرنا سفيفاً ابيض من الحرير وبهذا صح التشبيه في البيت

(٣) المراد بالغنى هنا الخلق الذي يكون في النفس.قال عبد الملك يوما لعبدالله بن يزيد ابي خالد وكان من أعقل الناس مامالك فقال شيئان لاعيلة عليّ معهما الرضاء عن الله والغنى عن الناس

وانْ لبست دارٌ معاطفَ زينة ... فمن بعض تبديلٍ يخيّلُ مأتمُ

* *
*

زهدنا على رغمٍ كأنّا لضعفنا ... رضيعٌ اذا ما أمسك الثديُ يُفطَمُ
ومن كان لا يدري متى يحرز الغنى ... غدا اليوم لا يدري متى هو يطعَمُ
ومن ذاق حلوَ الدهر أُعقبَ ملحَهُ ... ويا ليت لا يأتي مع الملح علقمُ
صغرنا وقد جاء الزمان مكبّراً ... فدينارنا بالامس ساواه درهمُ (١)
وبتنا اذا لم يخرج القول من فمٍ ... كما قيل « رَسْمِيّ » فهيهات نفهمُ
ومن نكدِ الايام في حتف صرفها ... لذي الحلم أن يُبلَى بمن يتحلّمُ
صَغارٌ وأوباءٌ وبؤسٌ وقد أتى ... لشقوتنا هذا الغلاء يُتمِّمُ (٢)

(١) ليس هذا الغلاء الا بمثابة انتقال الجسم من الماء البارد الى الحار من غير فترة بينهما والا فالغلاء والعياذ بالله هو الموت في الحياة وقد وقع في مصر على عهد الحاكم فكان الناس يأكلون الكلاب والقطط و بلغ ثمن البيضة الواحدة ديناراً . واخر غلاء من هذا القبيل هو الذي وقع في مدينة (بورارثر) في أواخر حصارها فقد بلغ ثمن الديك الرومي اربعين جنيها وكان الرطل من لحم الكلب يباع باضعاف ثمن الشاة عندنا

(٢) كنا نريد ان نأتي على لمحة من تاريخ مصر الى اليوم ولكن المقام ضيق غير انه لا بد لنا بعد ان فرغنا من هذه القصيدة ان نروي هذه النادرة : قال ابو عمرو مات رجل من بني قتال فلفه اخوه في عباءة وقال لآخر كيف نحمله قال كما تحمل القربة فعمد الى حبل فشد طرفه في عنقه وطرفه في ركبتيه وحمله على ظهره كما تحمل القربة فلما صار به الى الموضع الذي يريد دفنه فيه حفر له حفيرة والقاه فيها وهال عليه التراب حتى واراه فلما انصرفا قال له ياهناه أنسيت الحبل في عنق اخي ورجليه وسيبقى مكتوفا الى يوم القيامة قال دعه ياهناه فان يرد الله به خيراً يحلُّه . . . .

وقال

بعد حادثة دنشواي المشهورة

(موعظة)

يا أمةً كانت اذا استبقَ الورى فغبارها صعداً على الافلاكِ
غلبت على عز الممالك سطوةً كالكهرباء سطتْ على الاسلاكِ
كانت على شجر الزمان أزاهراً مابالها صارت من الاشواكِ
هدم الشعوب صوامع الكسل التي عمرتْ ومابرحُوا من النسَّاكِ (١)
متواكلين وكل أمرهم بان الأ مر بين الله والأملاكِ
اليوم صيدُوا بالطيور فياغدا أيُصادُ فيك القوم بالاسماكِ
ياقوم مانفع الضعيفَ شكاتُه كلا ولاشفع البكاء لباكِ
ذُلُّ الضعيفِ مع القويّ طبيعة الاَّ اذا ساواه في الادراكِ

(وقال)

السياح في مصر

شتاؤكِ يا مصر للنازلِ كقطر الدموع من الثاكل (٢)

---

(١) نروي هنا نادرة واحدة عن اليابان التي بهرت العالم بمدنيتها فقد كان يجب على معلم اولاد الامراء فيها منذ اربعين سنة ان يركع امام تلميذه مدة التعليم واضعاً على فيه منديلا كبيراً (فوطه) لئلا يدنس بانفاسه وجه الامير الصغير .. فتأمل

(٢) الشتاء في مصر اطيب شيء للاوربيين فيها فان بعض بلادهم في الشتاء ربما يعلو الجليد في طرقها الى ارتفاع متر ولذلك يسمون بلادنا بلاد الشمس والاحلام

له نفس كرجاء المحب ... خالطه لهف العاذل
وفي بقعة كجمال الحليّ ... تبدهها أعين العاطلِ
على نهر كسماء الشروق ... تبسم في وجنة الخامل (١)
تمرُّ على القلب أنفاسهُ ... بأطيب من أمل الآملِ
وقد دفن الدهر في شاطئيه ... أسرار تاريخه الكاملِ
فيكدُرُ كالظلم حيناً وحيناً ... يحاكي صفانية العادلِ
كأنَّ السفين على مائه ... خواطرُ في مهجة الغافلِ
فذاك الشراع بياضُ المنى ... وذاك الدُّخان من الباطلِ
ويا مصر أرضكِ مهدُ الصبا ... هناء وعطفا على النازل
فمن روضةٍ كابتسام الزمان ... الى نسمةٍ كوفا الماطلِ
الى راحةٍ كدبيب الشفاء ... الى الخصب في منكب الذابلِ

(١) يريد نهر النيل المبارك وقد كان قدماء المصريين يعبدون العناية الالهية باسم (اوزيريس) وكان النيل عندهم يمثل اوزيريس هذا فهو في اعتقادهم تمثيل عناية رب السماء في الارض . ويقال ان اقدم اسماء النيل (اجيبت) ومنه اشتق اسم مصر في اللغات الافرنجية . وكانت له مدحة عند المصريين نقلها (ماسبرو) من اللغة البربائية . يقولون فيها : انت سند الفقراء لم تصور في حجر ولم تمثل بتمثال ، لم يعمل احد كنه محالك ولم يصل الى معرفة سرك ولم ترسم في الكتب المقدسة ولم يحطك مكان من الازلية

الى أثرٍ في يدي باحثٍ ... كما أشرق النصر للباسلِ [١]
ومنا ومنهم يرى الناظرو ... ن فرق المفيق من الذاهلِ
وفينا وفيهم يرى العالمو ... ن قدر العليم من الجاهلِ
فهم في اضطرابٍ كموج البحار ... ونحن من الهدء كالساحلِ
وهم يفعلون ومنا الكلام ... وأين القوْل من الفاعلِ [٢]
وقد أبطلوا الرقَّ الا النفوس ... فللهِ من حيلة العاقل
اذا وقع الصيد في كفَّة ... وان وُسِعَتْ فهو للحابل [٣]
ويا ترجماناً لهذا الغريب ... أتطمع في العرَضِ الزائلِ [٤]
تجيبهُم كلما يسألون ... بما بغَّضَ الشرقَ للسائلِ

---

(١) بعض السياح يجيء مصر للراحة وبعضهم للاستشفاء واخرون للاعتبار وغيرهم للتنقيب في الآثار وهذا النسق هو المراد في الابيات

(٢) ما قول عظماء الشرق في طلب المستر تشمبرلن الوزير الانكليزي الشهير الذي رصع تاج بريطانيا العظمى بمناجم الترنسفال حيث طلب ان يكتب على ضريحه « انه زرع اشجاراً في طرق وشوارع برمنجهام واقتلع بيده بلاط الشوارع الداخليه » أليس مثل هذا هو دليل الحياة بعد الموت ؟

(٣) كفة الحابل وشرك الصائد سواء

(٤) زار بعض ساسة الامريكان مصر فكتب عنها في احدى جرائد بلاده كتابة مطولة قال فيها : اني رأيت الحمار المصري لم يرتق الى اليوم عما هو في الرسوم المأثوره عن القدماء منذ اربعة آلاف سنه . وغير هذا السائح (بفضل التراجمة) يظلم الناس في مصر وربما انصف حمارها المظلوم ..

ولو أنصف القوم ما ساءلوا سوى الحجر الصامتِ القائلِ
ولكننا أمــةٌ لم تزل من الذل في خدمة الخاذل
اذا ما أساءت يقولون في الحق أو أحسنت قيل في الباطلِ
وان بلدٌ لم يكن خيره لابنائه فهو كالماحلِ (١)

وقال

في ذم الخمر (٢)

بين الكؤوس وبين الاعين النُجُلِ سوقٌ لبيع الهوى والموت والعللِ
نقودها قُبَلٌ ان شئت من ذهب الكا سات في الفم او من فضة الغزلِ
امَّا ترنُّ فلا عقلٌ ولا جَلَدٌ صوت الجنون رنين الكاس والقُبلِ
البومُ تنعق في الاطلال منذرةً بالشوم والخمر فيهم بومةُ الأجلِ (٣)

(١) الماحل الذي لا ينبت شيئاً . وابيات هذه القصيدة وما قبلها شروح موجزة لحوادث مطولة هي قسم من تاريخ هذه البلاد

(٢) عمل الانكليز احصاء لشاربي الجعه (البيره) فوجدوا ان ماتشرب به امتهم منها في عام واحد لوصب في حوض لاستطاعت كل سفن انكلترا واساطيلها الضخمة ان ترسو فيه ولكان متوسط عمق الحوض ٢٠ قدما ثم حسبوا انه لو لزم ان يشرب كل ذلك شخص واحد في سنة واحدة لاقتضى له ان يشرب في كل دقيقة (٦٦٠ برميلاً) لا ينفك عن ذلك ليلاً ونهاراً الى آخر السنة . وفي امريكا مائة وار بعون الف حانوت لبيع الخمر . وفي مصر . . . تحسب الخمر لازمة للتمدن وكفى

(٣) في تاريخ ابن النجار ان كسرى قال لعامل له صد لي شر الطاير واشوه

وفي الكؤوس ظلامٌ ان نظرت له ... بأعين العقل تنظر خيبة الأملِ
والخمر من حِيَلِ الفقر المذلّ فهل ... أذلُّ ممن يريد الفقر بالحيل
لا تنظروا لون أهليها ورنقه ... فذي علامة هم النفس والخجلِ
كذلك النار ألوانٌ مزخرفةٌ ... وانما هو حسن الجمر والشُّعَلِ(١)

وقال

في تيه الاغنياء

لا تظنّ الغنيّ ان يمش تيهاً ... ملأته عُجْباً فضائل نفسه
انما تلك نفخة الدهر هزَّت ... من رطوباتها الجنون برأسه

وقال

قومي « ولا فخر » على حالة ... لا يعرف الانسان انسانا
فكلهم مأربهُ واحد ... فيما أرى شيباً وشبّانا
« وظيفة » تكتب تحت اسمه ... أو « رتبة » تذكر عنوانا(٢)

بشر الوقود وأطعمه شر الناس . فصاد بومة وشواها بحطب الدّفلى وأطعمها ساعياً (يتم بين الناس). ولو قال كسرى واسقه شر ما يشرب لما كان الا الخمر

(١) للنار ولهبها ودخانها ألوان جميلة ولكن جمالها لا يغر عما وراءها من ألم الكي والحرق

(٢) الشطر الاول للفقراء، والثاني للاغنياء، وبين الشطرين بياض ...

وقال

يتخيل انه في مصر صار كركفيلر في أمريكا (١)

أرتنيَ الاحلام فيما أرى روض زماني نضراً مثمرا (٢)
كأنما سال به لؤلؤٌ فأثمرت أشجارهُ جوهرا
فقلت للدهر أفي ليلة تنفض في فرق الثريا ثرى
أنا « فلان » بعدها أم أنا قد صرت في قومي رُكفيلرا

***

دنيا وما الدنيا سوى مرسح يعقب فيها منظرٌ منظرا

(١) ركفيلر هذا هو ملك الاغنياء في هذا الزمن ولد سنة ١٨٣٩ للميلاد فقيراً كما يولد أطفال الفقراء فلما بلغ السادسة عشرة كان يملك عشرة ريالات فلما صار الى الثالثة والعشرين كانت ثروته الفاً وخمسمائة ريال . ولما قطع السادسة والخمسين بلغت ١٥٠ مليون ريال وثروته الآن فوق الالف مليون . ومع ذلك فهو شديد الطمع والحرص وتلك حكمة الله

(٢) الناظر في هذه القصيدة يجدها فصولاً لانها لاتكون الا كذلك فالموضوع خيالي لا أثر للحقيقة فيه على الاطلاق وهو الى الهزل أقرب منه الى الجد . فبعد ان ذكر الشاعر في اولها انقلاب الحال هوّن على نفسه أمر هذا الانقلاب حتى لا يأخذها الشح ثم استفزّها الى البذل بوصف حالة البلاد التي يريد ان يبذل لها ثم ذكر وجوه الانفاق على نحو يضمن النصفة وجعل المال أخماساً وقد جاء في الحديث (وفي الركاز الخمس) والركاز هو ما يعثر عليه من كنز ونحوه . ثم كان كل هذا التخيل تمهيداً للحقيقة الاخيرة التي جعلت في الموضوع شيئاً من لا شيء وهي تمام البيان

ودولةٌ لكنها لم تزل — تخلف فيها قيصرٌ قيصرا
يا نفس ما السعد سوى مجهرٍ — يري الورى أصغرهم اكبرا (١)
والناس ان تخدعهم أعينٌ — فما على الالباب ان لا ترى
كالطفل من جهل اذا راعهُ — بدر الليالي ظنه سكرا

* * *

هاتوا لي المال أسلهُ لكي — اكتب في قومي به أسطرا
مصر وما مصر سوى صفحة — صوَّر فيها الدهر ما صوَّرا
بيناً تراها ناصعاً لونها — اذا به منقلبٌ أكدرا
ياليت شعري هل درى أهلها — ماذا الذي صار ومن صيَّرا
وهل يرى في نفسه نخوةً — تبعثه للعز من قد درى
تعوزنا الاخلاق نسعى بها — فلا يُرى مقبلنا مدبرا
للجند مهما ظفروا كسرة — وعسكر الاخلاق لن يُكسرا

* * *

المال أخماسٌ فخمسٌ لمن — في سبل الكدح له شمَّرا
وخمسهُ للعاجزين الأُولى — أقعدهم من دهرهم ماجرى
والخمس للاطفال في يُتمهم — ومن رآهم أهلهم منكرا (٢)
والخمس للعلم وأبنائه — والخمس للخيرات بين الورى

(١) المجهر هو المنظار المعظم كالمكروسكوب
(٢) يريد بمن رآهم اهلهم منكراً الاطفال اللقطاء

***

لافضــل للانسان في قدرة　　　فالله قــد شاء وقــد قدَّرا
هذا نبات الارض مابالهُ　　　ذلك لم يزهر وذا أزهرا (١)

***

بسطت كفي بسطة لم تدعْ　　　في مصر محتاجاً ولا مُعْسرا
أطلقت روح العلم في نيلها　　　تخترقُ المُدْن وتروي القُرَى
تجمع بَحْرَيْها على خيرها　　　أبيضها الجائرَ والاحمرا (٢)
والعلم ان كان حمى معشر　　　اقام من افكارهم عسكرا

***

وبعد ماجدت بهذي المُنى　　　أشرقت كالافق متى أمطرا (٣)
فلم أجد غيري وغير الأسى　　　ووجهِ صبح قد بدا مُسفرا

***

النَّاس يسعَوْن وأوطاننا　　　مِنْ عجزنا نخدمُها في الكرَى

---

(١) لو صح ان من البيان وحياً فهذان البيتان هما انجيل فضائل الاغنياء وتوراتها

(٢) في وصف البحر الابيض بالجائر قسم من تاريخ مصر يعرفهُ من وقف على تاريخها القديم والحديث وهي الكلمة الصغيرة التي يخرج منها المعنى الكبير

(٣) الاشراق هنا كناية عن النهوض والاستيقاظ وقد جاءت متمكنة من موضعها كما ترى

وقال

في الاماني البعيدة

لي أمانٍ من يوم عاشت بنفسي　　مات أنسي لشؤمها وهنائي
ان يكن قتلها دوائي فاني　　سوف يقضي عليّ منهن دائي
كيف اسطيعُ خنقها بيد العجـ　　ـزِ وهذي أعناقها في السماء

وقال

في اماني النفس الكاذبة التي تؤملها في الناس

دع الدنيا كما تجري لقوم　　يسميهم «زمانك» بالرفاق
وان عرضوا الوداد عليك يوماً　　فضع في لفظه معنى الفراق
وان تجر المنى بك في هواهم　　فخذها من ظنونك بالوثاق
وكيف ترى الاماني في قلوب　　مُصدَّأة بأنفاس النفاق (١)

وقال

في فلسفة الحياة والوجود

رأيت الدهر يخدع كل نفس　　ببعض الهم عن طلب الأماني
ومن يبغ الرجاء من الرزايا　　فقد طلب اللهيب من الدخان
ومن ظن الحياة رؤًى ووهماً　　فوهم مايظن ومايعاني

(١) كان الشيخ علي بن الحسين المعروف بابي الحسن الحريري ممن ينتسبون الى الزندقة يقول لاصحابه : بايعوني على ان نموت يهوداً ونحشر الى النار حتى لا يصاحبني احد لعلة . . . . وهذا منتهى الغيظ من الناس

كمن قطع المفاوز في منام ... وعاد وما تزحزح عن مكانِ
ألا ان الوجود كتاب حق ... حياتك فيه من بعض المعاني
وليس الله ناسخها بموت ... ولكن للعوالم لفظتان[١]
خلودٌ والفنا من ذا لهذا ... وليس الموت غير الترجمان
وما فرح الفتى والحزن الا ... ظلال النفس تسقط في الجنان[٢]
وليس يدوم ظلُّ الشيء الا ... بمقدار التحوّل والتفاني
وعجزٌ أن يسرَّ المرء أو أن ... يساء بيوم عز او هوان
فأعددْ همةَ الغد كل يوم ... فما الدنيا سوى يوم وثاني
وما غير العظائم باقيات ... يكرر ذكرها في كل آن
كساعات الزمان تنال ذكراً ... وما الاهمال الا للثواني

(١) ضمن اللفظة معنى اللغة كأن الفناء والخلود لغتان للحياة والموت ترجمان ينقل من لغة الى لغة . وقد تطرف بعض الأُمم في الاعتقاد بالحياة بعد الموت حتى ان أهل مملكة دهومي (وهي مملكة صغيرة واقعة على الشاطئ الغربي من غينيا العليا في غربي أفريقيا) يعتقدون ان مقام الانسان بعد موتهِ هو عين المقام الذي كان له في حياته ومن أجل ذلك اذا مات لهم ملك قتلوا معهُ عدداً من الناس ليكونوا بطانته وخدمهُ في العالم الآخر . واذا أرادوا ابلاغ بعض موتاهم خبراً قتلوا واحداً منهم وأرسلوا روحه تبلغ ذلك الخبر للاموات . . .

(٢) الجنان بالفتح القلب أو روعه

وكيف يدقُّ قلبك لانتظام الـ ـحياة وانت تجنح للتواني [1]
اذا لم ألق من قلبي معيناً فما انا في الحوادث بالمعانِ
يكاد القلب لو يسطيع يوماً لعزته يفر من الجبان
فما في فعله منه سوى ما ترى في الارض من ظل السنان [2]
نخذ في دورة الدنيا سواء على القطبين حرب او أمان
ولا تنظر لآت كل آت سيجري في مدارجه لشان
ولا تفخر بماض لا تراه فما للميتين وللتهاني
تجدّ النفس في الدنيا لتبقي لها أثراً على أرض الزمان

وقال

في ضعف الشرق والشرقيين

نحن من ضعف شرقنا قد رأينا باطلاً في الورى لنا كل حق

---

(١) التواني الكسل . ونبض القلب علامة الحياة وهو ينبض سبعين مرة في الدقيقة ويدفع عند كل نبضة نحو مائة غرام من الدم فيبلغ مايدفعه بنبضاته مائة طن في اليوم . ودم الجسم كله ثمانية وعشرون لتراً فهو على هذا الحساب يمر في القلب بين كل دقيقتين الى ثلاث دقائق ثم ينبعث منه وهلمّ جراً .

(٢) ظل السنان في الارض ليس فيه شيء من فعله وهو الطعن والمضاء فكذلك افعال الجبان ليس فيها شيء من روح القلب وهي الهمة والشهامة

يا (برهما) افتروا عليك ولكن　　صح تشبيههم على كل شرقي (١)
كاد قومي من المذلة في الخلا　　ق يظنون انهم غير خلق

وقال

في نحو ذلك

يارب قد صار بحر الدهر مضطرباً　　لا تستقر سفيني عند ساحله
وقد غمرت بموج من حوادثه　　يميل بي لقرار من مشاكله
فان أخضهُ فما نفسي بحاملتي　　وان أدعه فما جسمي بحامله
وان أمدَّ بباعي أبتغي فرجاً　　فما سوى الريح شيء في أنامله
نخذ يميني الى علياء تعصمني　　من جاهل الشر في الدنيا وعاقله

(١) في الاسفار الهندية المقدسة عندهم ان برهما قسم الجنس البشري اربع رتب سماها الواناً وفي البدء خلق مخلوقات العوالم السفلى والسموات العليا ثم هيأ الارض مسكناً للارواح الارضية ثم خرج من فمه لون البراهمة . . . اي رتبتهم وهم اقرب اليه من سائر المخلوقات واشبه به ولهم وحدهم الحق ان يعلموا الناس (الفيدات) التي جرت من شفتيه في وقت خلقهم حاوية كل علم تاماً كاملاً . ثم خرجت من ذراعيه رتبة الكشاتريا اي الجنود والمحاربين ومن صدره الذي هو مقر الحياة خرجت رتبة الفائسيا أي المنتجين كالرعاة والحراثين ونحوهم . ومن رجله دلالة على الوطوء والدناءة خرجت رتبة الصدرا اي الخدام المقضي عليهم بخدمة سائر الرتب والالوان ومنهم الفعلة واهل الحرف الدنيئة ونحوهم . ولذلك لم يكن احد من الهنود يخرج من رتبته لانه هكذا خلق والا رفض واقطع عنه اهله وعشيرته . و برهما هذا في زعم الهنود هو أول شخص تجسد فيه براهم اي الخالق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

فان كل امرئ في الشرق أصبح لا يظن أعجز منه غير سائله [1]

وقال

في الطبيعة والناس

ضلت الناس لا الفقير ممنًّى بثراء ولا الغنيُّ يبالي [2]
خفَّض الدهر ثم أعلى فأمسى بعضُهم سادةً وبعض موالي
اخوةٌ كالغصون ينبتها الجذ ع قصار تكون تحت طوال
أيُهذي النفوس ملتِ عن الفطِ رة حتى بليتِ بالاذلال
الثرى يُنبت الحبوب جزافاً والورى يقسمون بالمكيال [3]

(١) هذا العجز على نوعين ظاهر كما ترى ومعنوي على نحو ما قيل ان رجلاً سأل آخر عن مسألة فقال على الخبير بها سقطت . سألت عنها ابي فقال سألت عنها جدك فقال . . لا أدري

(٢) كان بعضهم يقول : « وددت أن لي مثل أُحُدٍ ذهباً لا أنتفع منه بشيء قيل فما ينفعك من ذلك ؟ قال لكثرة من يخدمني عليه . . .

(٣) جزافاً أي من غير مكيال . ولو ان هذا البيت قيل في اوروبا لقامت له القيامة لانه روح الاشتراكية الخالص وقاعدتها الذهبية وهنا نأتي على كلمة صغيرة في أشهر مذاهب الاشتراكيين وهي ثلاثة الاول مذهب (أوفن) وهو رجل يقول بتقسيم الارض بين بني آدم على السواء . والثاني مذهب الاتحاديين يقولون فيه انه يجب ترك الارض للناس تحت نظر حاكم عام ويأخذ كل انسان منها ما يريد فيكون التقسيم على قدر الاحتياج . والثالث مذهب (سنت سيمولن) يقول فيه ان تقسيم الثروة ينبغي ان يكون حسب الكفاءة فيأخذ كل انسان على قدر استحقاقه وعلى ذلك فلا وجه للهبة والوصية والميراث وانما ترجع الثروة عن صاحبها الى الحكومة القوامة على هذا العمل

وقال

يا أمة المال وكم سفهت ... هارون قدماً أمة العجلِ (١)
لن يصغر الناصح بين الورى ... ان تكبروا ذا المكر والدجلِ
للسن والرجل نموٌّ فمن ... يقيس طول السن بالرجلِ

وقال

في الروح

ألا ليت شعري كيف يشتد حادثٌ ... فيعصف بالدنيا وكيف يلين
ولو لم يكن الا الوجود وشأنه ... لهانت شؤونٌ عندنا وشؤون
ولكنها روح تداولت الورى ... ولم يدنُ منها للظنون يقين (٢)
يفتش عنها العقل وهو ضياؤها ... فكيف يرون الروح فيه تبين
اذا لم يكن بين اليقين وبيننا ... سوى الموت حد فالحياة ظنون

وقال

احفظ مكانك في الدنيا بغير أسىً ... مادمت بعد ليالي العمر تبرحهُ
فما الحياة سوى حمل تسير به ... حتى تنوء فعند القبر تطرحهُ

(١) هارون هو اخو موسى عليهما السلام والعجل هو الذي اتخذه السامري لليهود ولما نصحهم هارون سفهوه

(٢) الروح من امر الله وهي وراء الحد الموضوع للادراك البشري فلا يتناولها العقل لان العقل نفسه كما وصفه الشاعر ضوء لها فكيف يتوصل بمجهول الى مجهول مثله ؟ وللفلاسفة أقوال متضاربة في تعريف هذه المجهولات تدل على انهم أجهل الناس بها والله تعالى يقول « وما أوتيتم من العلم الاَّ قليلاً »

وقال

لا يذهب الاصل الكريم من الفتى ... ان ضايقته هموم هذي الناس
فالطبع يصفو بالهموم ضياؤه ... كزجاجة وضعت على النبراس
والشمس يبدِ لها مرور الغيم من ... لون النُّضار تألق الالماس (١)

وقال

است أدري اي المنى تقنع النف ... س ونفس الانسان تأبى الصوابا
الأماني مثل الصحائف والده ... ر يرينا في كل يوم كتابا
أيُّنا قانعٌ وأيُّ امرىءٍ شبَّ ... وأرضاه انه قد شابا (٢)
كلنا يسأل الزمان متى يا ... دهر حتى يرى الممات جوابا

وقال

في حوادث الدهر

عجبت لهذا الدهر يُضحك مرةً ... ويُبكي وشر الهم في ضاحك يبكي
يزيد بكاه في المصيبة كلما ... تذكر في وقت البكا زمن الضحك
ولو عرف الانسان ماسيصيبه ... تجنب اسباب الحوادث بالتَّرك
ولكنها مثل التِّلغراف ان بدا ... لك السلك لا تدري بما هو في السلك

(١) النضار الذهب والالماس معروف والمراد بالزجاجة في البيت الثاني زجاجة المصباح ولا يصفو نوره بغيرها

(٢) المعاني في ذم الشيب مستفيضة وهي تدل على ان الناس اجماع في التأفف من هذا الطور من العمر . ولعل هذا الكره غريزة في النفس الانسانية حرصاً على الحياة واستبقاء الذات والملذات

ومن شك في الايام عاش بهمه ويزدادهمًا من يعيش بلاشك (١)

وقال

في سقوط الخير بين الناس

الدهر في هزّته ضاربٌ من أهله الآخر بالاول
والناس في كفيه قد أشبهوا ما نخلته ربة المنزل
فالخير يهوي وحُثالاتُهم تُمسكها دائرةُ المُنخل (٢)

وقال

في العُطلة من العمل

أراني سابحًا والعمر بحرٌ يداي الليل فيه والنهارُ
ومالي ساحل أمضي اليه ولا مهوى به الا القرار
فان أهمل يديَّ قتلت نفسي كذلك عطلة المرء انتحار

وقال

في التهالك على المال

عجبت لمن سعى للمال حتى أضاع باصفريه الأَبيَضينِ (٣)

(١) من عاش متهمًا الايام مترقبًا صروفها فذلك منه هو الهم بعينه ومن أغفلها معتمدًا على القدر لا يفكر فيما يدع وما يذر كان همه ضعفين من الهم نفسه ومن مفاجأة الهم

(٢) يريد ان الناس كالدقيق الذي يهتز به المنخل فلبابه يسقط والخشن منه يظل مرتفعًا وان كان أقل قيمة في نفسه من ذاك

(٣) عن أبي زيد: يقولون ما عنده طعام ولا شراب الاسودان وهما الماء

يرى في قلبه عيناً فيغضي بها ويرى الظواهر باثنتين
وما بين الغنى والفقر الا مساحة حفرة في خطوتين
وكل أخ غنيٌّ عن أخيه وربك غير ثاني الاصفرين [١]

وقال

احذر فان حذار الناس ليس سوى نتيجة الدهر والأيام والعبر
كم تاجرَ الشيخ بالعمر الطويل فلم يفُدْ به في الورَى ربحاً سوى الحذَر

وقال

اذا ما لئيمٌ جاء بالخير واعداً فلا تغترِرْ اني أرى المرء مائنا
وأحمق ممن ظن ان تمطر السما دنانير من هيّاً لهن الخزائنا [٢]

والتمر العتيق ويقال ذهب منه الايضان أي شبابه ولحمه اه

وقد كنى الشاعر بالاصفرين عن السقم والذهب وهذه التسمية من وضعه وتقول العرب ايضاً الاحمران للخمر واللحم

(١) ثاني الاصفرين على ما مر بك هو الذهب والاول هو السقم وهما متلازمان . ومن المواعظ البليغة ما يروى ان الرشيد قال لابن السماك عظني . وكانت بيده شربة من ماء فقال يا أمير المؤمنين أرأيت ان حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك قال نعم قال أرأيت لو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك قال نعم قال فلا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة . . .

(٢) المائن الكاذب . وقد قيل ان اشعب ساوم رجلاً في قوس فسأله ديناراً فقال له اشعب : والله انها لو رمي بها طائر في جو السماء ووقع مشوياً بين رغيفين ما اعطيتك بها ديناراً

وقال

ان أصحاب ذا الزمان اذا ما　　أمَّلوا الخير ساعدوك على الهمْ
فاذا لم يؤملوك تخلَّوا　　عنك والدهر قد نبا وتجهَّمْ [1]
كنساءٍ ينُحنَ «مستأجرات»　　كل صوت ودمعتين بدرهمْ

وقال

سطرٌ في الطبيعة

أقرأتني هذي الطبيعةُ سطراً　　خطَّه الصدق في كتاب الزمان
كل شيء ملوَّنٍ لجميلٌ　　غير هذا «التلوُّن» الانساني [2]

وقال

روحي لماذا لم أكن طائراً　　في شجَر الجنات بين الحمامْ
روحي لماذا لم أكن في السما　　أو ملَكاً يسبحُ بين الغمامْ
روحي لماذا لم أكن قطعةً　　من الضيا أو قطعةً من ظلامْ
فكل ما لله تدبيره　　أسعد مما فيه أيدي الانامْ

وقال

نفسي ألَا لاتهني بعد ما　　عرفت طبع الزمن الغادرِ

(١) نبا وتجهم اي اقلب وعبس وشبه الشاعر هؤلاء الاصحاب بالنائحات وهو تشبيه ليس امكن منه

(٢) المراد بهذا التلون التقلب الذي يكون بين الناس ومنشوءه فساد التربية وضياع المبدء

يومٌ ويومٌ ذا لجمع الهوى | وذاك للبين وللطائر [١]
وعادة الايام أن تلتوي | في أول الأمر أو الآخر

وقال

أمتِ اليأس لايمتك فان عزّ | ك نيلٌ يُعزك التأميلُ [٢]
واذا جاز أن تشاهد ذا الما | ل فقيراً فما الغنى مستحيل

وقال

حكمة الله في الخلائق أن قد | طال عمرٌ بها وقصّر عمرُ
وارى الناس في الحياة كمن يص | عد طوْداً منه خصيبٌ وقفر
بعضهم دله القضاء على السه | ل وبعضٌ طريقهم فيه وعرُ
كيف يشكو من يصعد الجبل الشا | مخ ان يعترضه شوك وصخرُ
انما المرء زارعٌ وليالي ال | عمر بزرٌ فمنه حلوٌ ومرُّ
للحياة الفؤاد من صنعة الل | ه وللموت صنعة الناس قبرُ
ذاك في امره كهذا وكلٌّ | فيه من هذه الخليقة سرُّ [٣]

(١) الطائر هنا هو موضع التفاؤل والتشاؤم عند العرب على ماهو معروف فيما يسمونه بالزجر ومنه طائر البين . وكل ذلك من خرافاتهم

(٢) عزك الاولى بمعنى عز عليك ويعزك الثانية من عزاه عن المصيبة ونحوها والتأميل هو الامل

(٣) الفؤاد هو مقر الحياة وهي سر من اسرار الغيب والقبر مقر الاموات وليس يدري احد ماوراءه ولا ما فيه الا ما جاء من ذلك في الشرائع السماوية وهو من السمعيات التي لاجدال فيها

وقال

كم قلت مابين قبور الورى ياليت أني متُّ ياليتا
يكفي حياةَ الارض من ذمها أنيَ حيٌّ أحسد الموتى

وقال

في السعادة الأرضية

سأموت لكن لاتموت محبتي هل للهوى ياعاشقين قبور
اياك تأمل في الحياة فضيلةً صرفاً وقدمزج الحياةَ غرور
لايبصر الاشياء بيضاً من يرى بزجاجة سوداء وهو بصير (١)
سأموت لاأسفٌ عليَّ ولاأسى مني على الدنيا ولا تحسيرُ
كل يرى فيها السرور لغيره فالوهم في الدنيا هو المسرور
هيهات يغشى الارض ظلُّ سعادة مادام من جهة السما التدبير (٢)

(١) من وضع على عينيه زجاجة ملونة يبصر الاشياء منصبغة بلونها كذلك الانسان ينظر من آماله واغراضه فتنصبغ الدنيا كلها بألوانها الوهمية من رضاء وسخط وغير ذلك . ومن غريب حكمة الله ان شعور العين بالنور لايتم الامتى بلغت تموجات دقائقه من ٤٠٠ الى ٨٠٠ تريليون (الف الف بليون وهو الف الف مليون) فتبارك الله كم في البسائط من مركبات

(٢) من الغريب ان كل انسان في الدنيا يظن غيره سعيداً ولا يظن ذلك في نفسه فالنتيجة من هذه المقدمة ان لا سعادة لاحد . وقد اختلف الحكماء وعلماء الاخلاق والعمران في تعريف السعادة ولكن آية هذه السورة قول شاعرنا هذا

وقال

امَّا يناصبك فتى حاسدٌ　　　فلا تسل عن سبب ماهُوَهْ
اللص والحاسد في رتبة　　　واللص لايرقب ان تدعوَهْ

وقال

ان الحـواسد ليس تلـ　　　ـقى منهم اللعنـاتُ بُدَّا
خربت عقولهمُ فظنوا　　　هزءهم للفضـل هـدا
يامن يذم العقل من　　　نقص واهلَ العقل حقدا
كالظل فوق المـاء مثـ　　　ـل البُرد فيـه وليس بُردا
في البحر درٌّ ان تَصِدْ　　　هُ فما سلبت البحر عقدا

وقال

أرى زمنا كله أحمق　　　فمن يأمرون كمن يؤمرونْ
وهذا قويٌّ وهذا ضعيف　　　ولـكن عن الذل لايضعفون
وأحمق هذا الورى مُستَبِدّ　　　يخادع بالعدل من يُظلَمُونْ
كمن راح يصرخ جدَّ الصُّراخ　　　وحاذر أن يسمع الجالسون

وقال

نحن في دهر تعدُّ بهِ　　　سيئات الناس بالسبح
والذي يحيي لياليَهُ　　　يُبدل القرآن بالمُلَح (١)
سبَّحوا لـكن باكؤسهِم　　　واستعاضوا سجْدة القدح

(١) الملح هي النوادر والفكاهات

وقال

الورى أثنان ذا وذا　　كلما انحطَّ يرتفعْ
ولذا الدهر شيمةٌ　　كلما ضرَّ ينتفعْ
جذبتني خطوبه　　من قريب وممتنعْ
ورمتني صروفه　　من بطيء ومندفعْ
رميةً والزجاج من　　أيسر الرجم ينصدعْ
وكذا العمر عقدةٌ　　آخر الشدّ تنقطعْ

وقال

من عدَّ للناس كل عيب　　فليس في الناس بالأديبِ
يا من يعدّ العيوب مهلاً　　فعلك هذا من العيوبِ

وقال

لاتغترر بالناس في حالة　　فهم مع التاجر في سوقهِ
كم خاطب بنتَ غنيّ لكي　　يجعلها مفتاح صندوقهِ
ومن رماه دهرهُ صار من　　رُعاته من كان من نوقهِ (١)

وقال

اذا رأيت وجوه الناس باسمةً　　يدعوك ذا بأَخي فيهم وذا بأَبي (٢)

(١) النوق جمع ناقة والرعاة جمع راعٍ والتمثيل واضح شواهده في حوادث التاريخ

(٢) العرب تستعمل لفظة الأخ على أربعة أوجه احدها المُلابس والملازم

فاعلم بأنهمُ سود القلوب كما　　تُريك سودُ الليالي رَونقَ الشهبِ

وقال

في الوصف بالشهرة

قد مضَّني وصف «الشهير» فما أرى　　معناهُ شيئاً من فخامة لفظهِ
كالشاهِ في الشطرنج اكبرُ نفعه　　للاعبين جهادهم في حفظهِ[1]

وقال

في تناهي الشر من الناس للناس

يا أرض يا جنَّان يا أهل السما　　يا من يكونون ويامن كانوا
ان يسأل الانسان عن عدوّهِ　　تخبّروا أن اسمهُ الانسانُ

للشيء كقولهم أخو الحرب والثاني المجانس والمشابه كقولهم هذا الثوب أخو هذا والثالث الصديق والرابع أخو النسب بقرابة وهو المشهور في استعمالهم أو قبيلة كقولهم يا اخا تميم وبه فسر قوله تعالى يا أخت هرون

(١) الشطرنج لعبة معروفة وضعها الفرس ولها قصة طويلة ويقال انها تمثل في التدبير مذهب الاختيار المشهور وهو ان الانسان له اختيار في اعماله والنرد (الطاوله) يمثل مذهب الجبر وهو ان الانسان مسيَّر لا مخير وأمره للقضاء والقدر لان الذي يلقي الفصوص لا يدري بماذا تجيء فتارةً تكون سعداً وتارةً تكون نحساً . والشاه في الشطرنج مقيد لا نفع له في الغالب ومدار اللعب كله على حفظه وهو مع ذلك اكبر قطعة في الرقعة

الباب الثاني

في

النسائيات

طلاق الامبراطورة جوزفين [1]

قد رأينا أن نورد في شرح هذه القصيدة فصلاً برمته من تاريخ فرنسا الحديث ونجعله مقدمة لها ليصور هذه الحادثة للعقل قبل ان يصورها الشعر للقلب . قال صاحب التاريخ المذكور في كلام :

وجاء اليوم الذي عين لتبليغ هذا الخبر المكدر الثقيل الى جوزفين.وكان آخر شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩ وكانت قد سمعت باخبار متعلقة بذلك ملأت قلبها بالحزن والكدر وهي مع نابليون في فونتينبلو .وقد جعل انتظار الطلاق كل شيء في القصر مكدراً . وكان الضيوف قد خرجوا منه ورياح الشتاء غير المنعشة تعصف باشجار الغابة الساقطة أوراقها . وصرفت جوزفين الصباح في خدرها تذرف الدموع وكانت شفقة نابليون وحنو قلبه يمنعانه أن يأتي غرفة زوجته الحزينة المظلومة فصرف الصباح ايضاً في مكتبه والتقيا عند الظهر على المائدة فجلسا صامتين وأكلا بدون ان ينظر

(١) جوزفين هذه هي امرأة الامبراطور نابليون الكبير وكانت أرملة ضابط حينما تزوجها وذلك قبل طلاقها بخمس عشرة سنة وهو يومئذ ضابط بسيط . وقد تزوج بعدها ماريا لويزا ابنة امبراطور النمسا في سنة ١٨١٠ للميلاد

احدهما الى الآخر وكان اصفرار وجه كليهما علامة على الكدر الشديد في قلبه وجلست جوزفين بدون ان تتحرك كأنها صنم . فارتبك نابليون وضرب القدح بالسكين علامة للفراغ من الطعام غير منتبه لذلك فخرج الخدم فاقفل الباب ودنا منها وهو أصفر كالميت وفرائصه ترتعد وأمسك يدها فوضعها فوق قلبه وقال بصوت مرتجف : يا جوزفين الصالحة أنت تعلمين شدة حبي لك والدقائق القليلة التي شعرت فيها بالسعادة قائمة بك . يا جوزفين ان نصيبي متغلب على ارادتي وأشد عواطفي لا بد ان تضحى لما فيه خير فرنسا

وكانت منتظرة ان تسمع منه هذا الخبر ومع ذلك صعقت له فوقعت غائبة عن الصواب. فخاف نابليون وفتح الباب بسرعة ودعا من يعينه فجاء الكونت دي بومون وحملها معه الى الطبقة العليا ودخلا بها غرفتها فكانت تقول وهي محمولة غائبة عن شعورها : لا لا انك لا تقدر على ذلك لا ترغب في قتلي . . و بعد ذلك بزمن قصير حل اليوم المعين للطلاق وكان الخامس عشر من شهر دسمبر سنة ١٨٠٩ فاجتمع كل اعضاء الاسرة الامبراطورية في قاعة قصر التويلري الكبيرة واجتمع معهم كبار ارباب الخطط وكانت سمات الحزن تلوح في وجوه الجميع فكلمهم نابليون بصوت ثابت وقد اشتد اصفرار وجهه قائلاً :

ان مصالح امبراطوريتي السياسية وارادة شعبي التي طالما كانت ضابطاً لاعمالي تدعوني الى أن أترك العرش الذي اجلستني عليه يد العناية لوارث يرث حب الامة مني . وأرائي قطعت الامل من سنين كثيرة ان يجيئني أولاد من زوجتي المحبوبة الامبراطورة جوزفين فهذا هو الذي يحملني على تضحية أشد عواطفي في سبيل ترقية رعيتي . وقد بلغت الاربعين فلا يزال لي أمل أن أعيش وأربي الاولاد الذين يمن الله بهم عليّ تربية موافقة لآرائي وأميالي ، والله اعلم بالضيق الذي أطبق عليّ من هذه الرغبة على ان شجاعتي تسهل عليّ احتمال كل شديدة حباً في منفعة فرنسا .

ولا أشكو من زوجتي المحبوبة بل أثني عليها وأقدر حبها لي قدره وقد سعدت بها خمس عشرة سنة من عمري وسيبقى لها تذكار في قلبي الى الابد . وقد توّجتها يدي وسيبقى لها لقب امبراطورة الى الابد . ولا ينبغي ان ترتاب في حبي لها بل تعلم أنني أصدق الاصدقاء

وبعد ان فرغ من كلامه كان في يد جوزفين ورقة فحاولت قراءة ما فيها غير ان الحزن والبكاء منعاها من ذلك فاعطتها لرينو وغطت وجهها بيديها وجلست على كرسيها فقرأ فيها ما يأتي : أقول باذن زوجي المعظم المحبوب انه لا أمل لي بالحصول على أولاد لسد احتياجات سياسته ومصالح فرنسا فأسر الآن بان أظهر له أعظم براهين الحب والغيرة التي ظهرت في الارض . وكل ما عندي هو من جوده فان يده هي التي توجتني وبجلوسي على عرشه لم ارَ من الامة الفرنسوية غير علامات الحب.واني أشارك الامبراطور بالعواطف في قبول الطلاق لازالة ما يحول دون سعادة فرنسا ويحرمها من الحصول على سياسة نسل ذلك الرجل العظيم الذي أقامته العناية ليمحو شرور فتنة مخيفة وليرجع المذبح والعرش والنظام المدني على ان قطع آصرة الزواج لا يغير من عواطف قلبي وسيرى الامبراطور انني أصدق أصدقائه وأنا عالمة ان هذا العمل الذي سيق اليه بالسياسة مزق قلبه على ان كلينا يتمجد بالضحايا التي أداها في سبيل مصالح البلاد

وفي اليوم الثاني جمع نابليون مجلس الاعيان في القاعة العظيمة ليشاهد اجراء الطلاق رسمياً وكان أوجين (ابن جوزفين من زوجها الاول) في كرسي الرئاسة فصرّح ان أمه والامبراطور راغبان في الطلاق وقال ان دموع جلالة الامبراطور الناشئة عن هذا الطلاق كافية لتمجيد أمي . وكان الامبراطور لابساً الملابس الرسمية متكئاً على عمود ولوائح الهم والنكد تلوح على وجهه وهو ينظر الى الفضاء صامتاً فكان القوم كأنهم في جنازة. وكان في وسط القاعة منضدة مستديرة عليها دواة وأقلام

ذهبية وامامها كرسي خالٍ وأخذ القوم ينظرون اليها كنظرهم الى آلة الاعدام . ثم فتح باب في جانب القاعة ودخلت جوزفين وقد اشتد اصفرار وجهها حتى كاد يصير أبيض كالثوب البسيط الذي كانت تلبسه يومئذ وكانت متكئة على ذراع هورتنس (شقيقة أوجين) التي لم تكن قادرة على التجلد فكانت تبكي بكاء شديداً ، وعند دخولها وقف الناس وقد ملأت الدموع أعينهم جميعاً . وتقدمت بالجلال المخصوص بها الى الكرسي فجلست عليه واعتمدت جبهتها بيدها وأصغت الى قراءة كتاب الطلاق . وعند ما انتهت القراءة المحزنة اشتد ويلها فغطت عينيها بمنديل وبعد هنيهة نهضت وحلفت بصوت صاف مرتجف بانها تقبل الطلاق ثم جلست وتناولت القلم ووقعت على الكتاب الذي قطع من قلبها أعظم الآمال وأحبها عندها . ولم يقدر أوجين ان يتحمل ذلك فأصيب بدوار ووقفت ضربات قلبه وسقط على الارض وليس فيه ما يدل على الحياة

وكانت بعد ذلك لنابليون وجوزفين مواقف محزنة جداً فصّلها صاحب التاريخ الذي نقلنا عنه هذه الكلمات ببعض تصرف

القصيدة

رأى قلبهُ من قلبها ما يكابدُ ... فنازعهُ فيها الهوى والمقاصدُ
رأى حبهُ معبودها وفؤادُها ... يدقُّ كما دق النواقيس عابدُ
رأى دمها وجدًا رأى وجدها دماً ... فغيَّب عنه الرأيَ ما هو واجدُ
رأى قلبها كاللؤلؤ الرطب ناضراً ... فأشفق أن تلقى عليه الجلامدُ
فتىً جاهد الدنيا وجاهد أهلها ... وفي نفسهِ لم يدر كيف يجاهدُ
أقامت له الأيام صدر أمورها ... وفي صدره همٌّ من الحب قاعدُ

بكى وبكت «جوزفين» حزناً وقلبها ... على قدميه من جوى الحب ساجدُ
ولما أضا برق المنى في فؤاده ... لها أيقنت أن سوف تدوي الرواعد (١)

***

يقولون هذا ليثنا أين شبلُهُ ... ألم تدر أن الموت ياليث صائدُ
فمن يرث التاج الذي أنت تاركٌ ... ومن ينتضي السيف الذي انت غامدُ
ومن يَلِجُ الباب الذي قد فتحتَهُ ... ومن خلفهِ الدنيا وتلك الفراقدُ
وأيُّ جبين فيه سيماكَ تجتَلَى ... وأيُّ فؤاد فيهِ سرُّك خالدُ
سيُظلم عرش الشمس ان غاب بدره ... ولم يك مولودٌ عليه ووالدُ

***

أتثبت هذي الارض لاثنين مثله ... وقد هزَّها مابين كفيه واحدُ
فأولى « بنابليون » نسلٌ من السما ... يجاهد في أفلاكها ويجالدُ
لتنضمَّ في أملاكه الأرض كلها ... ونبتون في جوّ السما وعُطاردُ (٢)
ويرميَ ذاكَ النسر ظل جناحه ... الى حيث لا يرقى من الوهم صاعدُ
كفى الارض مانالتهُ من مَطَراتهِ ... لكل أوان زارعون وحاصدُ (٣)

***

(١) يشير ببرق المنى الى رغبة نابليون في الاولاد و بالرواعد الى ما سيكون من كلمات الطلاق

(٢) نبتون وعطارد كوكبان في السماء

(٣) يريد بالمطرات الحروب التي قام بها نابليون وتاريخ هذا الرجل العظيم كأنه قطعة من السحر

ويومٍ تولى برجه شرُّ كوكبٍ ... فدارت على أقطابهنّ الشدائد
ومد عليه النحس ظلَّ كآبةٍ ... تغشّتهُ حتى كل مافيه كامدُ(١)
كأن خيال الموت مدَّ طرافه ... عليه فكلٌّ ساهمُ الخد جامدُ(٢)
كأن لهيب الشمس في مهجة الهوى ... فللشمس جرمٌ أكمدُ اللون باردُ
اذا كان في الايام ايمان رحمة ... فيومك ياجوزفين فيهنّ جاحدُ
صرخت فردَّ الجوّ أنفاس أهله ... ليصعد صوتٌ من فؤادك شاردُ
ليصعد صوت العدل لله شاكياً ... عليه يمين من بكاكِ وشاهدُ
ليبلغ سكان السماء تنهدٌ ... من الأرض اذجوُّ الفضيلة راكدُ
لتضطرب الارواح من ظلم أهلها ... لتصرخ في سر القلوب المحامدُ
فقد نزعوا قلباً وتاجاً ونعمةً ... وزوجاً ولم يفقد كهاتيكِ فاقدُ
رموا قلبك المكسور في مطرح النوى ... يُطارد من آفاته مايُطاردُ
ولا نخر للانثى سوى ضبط قلبها ... تقـرّبُهُ أنى تشأُ وتُباعـدُ

⁂

دَوَتْ قصفاتُ الدهر وانطوت المنى ... وغطت سماء النصر تلك المكائد
وجاء وليُّ التاج والتاج ذاهب ... وحلت اماني الدهر والدهر زاهد(٣)

---

(١) الكمدة تغير اللون وذهاب صفائه

(٢) سهوم الخد تغيره أو عبوسه وكلا الحالين يكون عند الاضطراب والعامة تقول فلان مسهم اذا كان متغير الوجه لذهاب فكره في أمر. والطراف بيت من أدم

(٣) هذا هو ابن نابليون الذي كان سبباً في طلاق جوزفين ومنذ خلق هذا الطفل مات سعد الامبراطور العظيم ولم يكدره في منفاه غير تذكاره حتى قال

وأصبح ركن العرش كالغصن مائلاً ... على كل ريح لا يرى من يساندُ
ودارت بنابليون في النحس دورة ... تقابل فيها حظه والنواكدُ
وقصوا جناحيْ نسره بعد ان دوى ... لخفقهما جوّ العلى والفدافدُ
فيانسر ماذا يصنع الفرخ بعدها ... وقد حطمت ظفريه هذي المباردُ
تركت له ملكاً بغير رعيَّة ... وكفاً ولكن ليس في الكف ساعدُ
وبوأته عرشاً اذا ما ادَّكرته ... لقيت كما يلقى الخيالات راقدُ
جنيت عليه بالسياسة قبلها ... بلى قد جنتها قبل ذاك العوائدُ
أتذكر اذ عاندت قلبك جاهداً ... فهذا الذي قد كنت فيه تجاهدُ
وكذَّبته والقلب صوت من السما ... ولولاه ما سدَّدتَ اذ انت قائدُ
وألزمته نصح الورى وهو مبصرٌ ... وللعين لا للقلب تُعطى المَراودُ
فما قتلتك الحادثات وانما ... أرتك دم القلب الذي أنت فاصدُ

وقال

في حسان الارض والسماء

أُنبئتُ أن الحور في الفرقدِ ... فقلت للقلب اليها اصعدِ
وللضلوع انفرجي ساعة ... وللجفون انتظري واسهدي
وقلت يا صدري تنفس بما ... طويت من دهري ومن حسَّدي
فلم يرُع قلبي سوى زفرة ... طارت به للأُفق الأبعدِ

هيجو في بعض قصائده « ان الرجل الذي لم يكن يشتري العالم بدمعة من دموعه صار يذرفها هدراً على خيال طفل صغير » . وقد لقبه نابليون عند ولادته بملك رومه . . . فكان الجزاء من جنس العمل

***

يا هـذه الحسناء رفقاً فما ... قلبيَ من طين ولا جلمدِ (١)
القلب ذَوْبُ الروح لكن متى ... تمسّه نار الهوى يُعْقَدِ
تالله ما الوردة قد أصبحت ... ترشف من ريق السماء الندي
واختبأت ما بين أوراقها ... ريح كنفح الزمن الأرغد
وما العيون النُّجْلُ قد كُحّلت ... من اثمد الحسن بلا مِرْوَدِ
وانبعثت ما بين أجفانها ... أسرار حد الصارم المغمد
ولا شفاه الغيد قد أطبقتْ ... على ابتسام كان عن موعد
واحتبس الوجد بها قبلةً ... لولا الحيا قد نالها المجتدي
ما كل ذا مشبه قلبي وما ... أطهر ما في القلب من مقصدِ

***

قالت ليَ الحور أما في الدُّنا ... من لا ترى مثلك من سيّدِ
تهواك او ترضيك عند الهوى ... أو تستر الحسن فلا تعتدي
نراك ظمآنَ ألما تجد ... على مياه الارض من مورد

***

(١) هذا الاسلوب هو أسلوب القرآن الحكيم في القصص الواردة فيه فانهُ يذكر منها الاركان وما يمتد بينها ولكنهُ يترك في كل موضع فرجةً يلتفت اليها الفكر فمتى قرأ الانسان مفتتح هذه القصيدة ثم وصل الى هذا البيت علم ان الشاعر أمام حوراء، وانه تهيأ لمخاطبتها ثم خاطبها وهذا كله محذوف من الكلام

هيهات قد أصبح معنى الهوى بين الغواني نحو «سوّر يدي» (١)
يا رب من طين خلقت الورى من بات في عُدْم وفي سؤدد (٢)
فما الحور الارض يهجُرْنَنا ان لم نكن من طينة العَسْجَد

وقال

في النساء الجاحدات (٣)

أتجحد من لا فضل فيها سوى التقى ومن لا أرى فيها سوى صورة القلب
ومن هي من نور السماء مضيئة على كل نفس بالاماني والحبّ

(١) سور اليد جعل فيها سواراً وهذا هو الحب الفاسد وربما كان طاهراً ولكنه في هذا الشكل لسوء تربية النساء أو أكثرهن في هذا الزمان

(٢) العدم الفقر والسؤدد الثروة والجاه والله تعالى قد خلق الانسان من طين وهؤلاء يردن ان يكون من ذهب حتى يقرضن أعضاءه أو على الاقل بتمثل لهن بثروته تمثالاً ذهبياً

(٣) هذا الجحود قد كاد يصير سنَّة من سنن التمدن الغربي واخذ يتسرب الى افئدة النساء حتى شعرت به فضلياتهن وقد قالت الملكة مرغريته والدة ملك ايطاليا الحالي في حديث لها مع احد كبار رجال الصحافة الامريكية : « ان الفتاة التي تتربى تربية دينية تكون اكثر احتراماً لنفسها من التي لا تؤمن بشيء وتلك حقيقة تؤيدها كل ظروف الحياة وأحوالها . وهم يسمون الفتاة التي لا تؤمن بشيء (عقلاً قوياً) لكنها على الحقيقة ليست بذات نفس قوية . ثم هي تفقد لطف التصور وشاعرية الوهم ويقسو قلبها بالتجارب الدنيوية فلا تجد فيه قوة لاحتمال متاعب الحياة فالمرأة التي لا دين لها زهرة لا رائحة فيها » اه وهذه هي فلسفة القلوب النسائية التي كانت دائماً مصدر الحكمة

وما الحسن اذ خصت به غير حجة — على وَهَنِ المربوب في قدرة الرب
وفيها صفات خيرها الضعف انه — لما تدفع الدنيا بمنزلة الجذب(١)
وما ضرها في ذلك الضعف أنها — من الناس مثل العين للجفن والهدب
فأيُّ فتاة تحتمي بسوى فتى — وأيُّ فؤاد يتقي بسوى الجنب
وأقبح شيء أن أنثى ضعيفة — يخامرها الالحاد كالملح في العذب
ويدعونها « العقل القوي » وانما — دعوا حطباً ماجفَّ من غصنٍ رطب
خذوا الدين من قلب النساء، وأطفئوا !! — صباح فهل يبقى سوى ظلمة الرعب

وقال

في أم الحماقة

ألا انما أم الحماقة من غدت — بما ادَّهنت تلقي على عمرها سترا
فيحسبها من رآها طفلة الصبا — ويا ربما كانت لجدته عمرا(٢)

وقال

في قوة الجنس اللطيف

هي للنعيم وان شقينا موعدُ — في كل يوم مُخْلِفٌ ومُجدِّدُ

---

(١) الدفع والجذب قوتان طبيعيتان لا يستقيم النظام باحداهما وما تدفعه الدنيا هو الهموم التى هي في اصطلاح كل الناس «عثرات البخت» ولا سلوة فيها الا بالمرأة

(٢) هذا التشبيه للنساء العجائز اللواتي يحرصن على التصابي ومن طباع النساء تصغير اعمارهن حتى قيل ان لكل امرأة ثلاثة اعمار: العمر الحقيقي والعمر الذي تعلنه عن نفسها والعمر الذي تريد ان تُدعى به . . . وقد ذكروا ان امرأة دعيت الى محكمة لاداء شهادة فسألها القاضي ما اسمك ؟ فعرّفته فسألها وما عمرك؟ فقالت اترك هذا لعدالة المحكمة . . . ! والادهان هو ما يستعمله من انواع الطلاء

لعب الزمان بنا على آمالها ... ما ان يحققها ولا هي تنفدُ
وأشد مالقي امرؤٌ من نفسه ... أملٌ اذا اقتربت اليه يبعدُ
قالوا النسا خد الزمان فهل ترى ... بسوى دماء العاشقين يورَّدُ
قالوا بنات الشمس في الدنيا وقد ... صدقوا لأن لظى الهوى لا تخمد
قالوا وأمثال النجوم لأنها ... ماحولها الاظلامُ أسودُ(١)

* *
*

ان النساء هي الوجود أما يرى ... كل الرجال لاجلها مايوجدُ
هي في القلوب وكل شيء راجع ... للقلب فهي لكل شيء موردُ
والقلب في نسج الطبيعة عقدة ... بين الهوى والرأي لم تَلِيا يد (٢)
فاذا نظرت الى العظائم لم تجد ... الا ارادات النسا تتجسد (٣)
واذا بحثت وجدت كل عظيمة ... في طيها نظرات أنثى تشهدُ

(١) من كلام شاعرنا « المرأة هي السر الذي لم يكشف للرجل » ولذلك ترى في الناس من يجور عليها في الحكم حتى من اكابر الفلاسفة والملوك وقد قال بعضهم لو كان الرجال بدون النساء لاصبحوا يتكلمون مع الملائكة . وهي كلمة تفسر نفسها لان الرجال لا يجيئون من غير النساء فان كانت اشخاص عاقلة من غيرهنَّ فأولئك هم الملائكة

(٢) لم تَلِيا اي لم تعقدها وهذا المعنى مضمَّن فيها لان المادة لا تفيده

(٣) شرح هذا البيت تاريخ الحوادث الكبيرة وقد قال فيلسوف لا يأتي عظيم الى هذا الوجود الا وقد سبقتهُ عظيمة وهي امه . وهذا التفسير هو شطر المعنى الذي اراده الشاعر . ولما منح اللورد بيكنسفلد ألقاب الشرف قال اعطوا ذلك لامرأتي فكل الفضل في اعمالي لها . ومثل هذا كثير

يدعونه (الجنس اللطيف) لضعفه　　فسل البخار بلطفه كم يجهدُ [1]
ما الشأن في صغر الامور وضعفها　　أين الرصاص اذا دوى والجلمدُ
السيف يقطع والردى ذو سطوة　　والنار تحرق والنسا تتوددُ [2]
واذا تقلدن الحليَّ فانما　　مفتاح باب القلب ما تتقلدُ

***

ما البحر ملتطماً تضارب موجه　　كالغيظ في صدر امرئ يترددُ
متواثباً كالشيخ يحرج صدره　　فتقوم هامته لذاك وتقعد [3]
مُتنفساً نَفَس القتال اذا دوى　　وقعُ المهنَّدِ يلتقيه مهنَّدُ
مُتغيِّظاً حرِداً فلولا أنهُ　　ماءٌ لسال أشعةً تتوقدُ [4]
تثِبُ العواصف فوقهُ وثب الجنو　　نِ يظلُّ يُبرق اذ يهيج ويرعدُ

(١)　هذه التسمية من مصطلحات الافرنج وهي ظرافة في التعبير اشتهروا بها ويسمون الجنس الآخر « بالجنس النشيط » وهم الرجال والبخار اضعف شيء لانهُ ذرات متحللة من الماء ولكنه مع ذلك القوة التي لا تعاند كما نرى من آثاره في جرّ الاثقال وغيرها

(٢)　هذه كلها مترادفات في فعلها وان كان الاخير اضعفها وألينها في لفظه

(٣)　حرج الصدر ضيقه وهامة الشيخ بيضاء فهو اذا حرج صدره لا يجد من حول ولا حيلة الا القلقلة في مكانه لانه عاجز عن النهوض ضعيف عن كظم الغيظ فتردد هامته كما ترى في تردد الموج

(٤)　حرد وحردان اي غاضب وترى البحر في تموجه كأنه يريد ان يتطاير

بأشدَّ من انثى تكلفت الهوى　　وأتت بحيلة ضعفها تتنهدُ[١]

وقال

يصف فتيات صغار رآهنَّ وقد دُعيَ الى محفل

لاحدى مدارس البنات

زهورٌ وما للزهر هذي المباسمُ　　وروضٌ وما للروض هذي الحمائمُ
أرى فتيات كالغصون وانما　　تنزَّهنَ ان تلوي بهنَّ النسائمُ
أرى أمهات لم يجئْ بعد عصرها　　وقد وُلدت ما بينهنَّ المكارمُ
أراهنَّ كالالماس فضلاً وانما　　مدارسنا هذي لهنَّ مناجمُ
أرى العلم قد أمسى عليهنَّ حليةً　　وما الحلي دون العلم الا تمائمُ[٢]
وأحقر شيء في يد البنت ابرةٌ　　ولكنها لم تُغنِ عنها الخواتمُ

(١)　هذا الفصل لا ينطبق على كل النساء، ولا طبقه الشاعر على كلهن . وانما خص به طائفة المتكلفات ولسن بأشد ويلاً من المتكلفين . وقد قيل ان لقمان بن عاد تزوج عدة نساء كلهن خنّه في انفسهن وكان يقتلهن واحدة بعد واحدة فلما قتل اخراهن ونزل من الجبل كان اول من تلقاه ابنة له فوثب عليها فقتلها وقال ألستِ امرأة . . . . وهذه النقطة في العمران موضع عميق غرقت فيه افكار كثير من فحول العلماء والفلاسفة

(٢)　التمائم جمع تميمة وهي ما يعلق على الاطفال وقاية لهن وذلك من الخرافات الشائعة في كل عصر

وقال

في حاجات النساء التي لا تنتهي وأن ذلك من ضعفهنَّ

ضعفنَ وضعفهنَّ لنا عذابٌ ... كهمّ المرء بالسيف الكليلِ (١)
ومن آيات ضعف النفس ان لا ... تحاول غير شبه المستحيلِ
وما بكثير فضل العقل مَن لا ... تفضلهُ القناعة بالقليلِ
فما همُّ المليحة غير طرفٍ ... ولو من حظ صاحبها كحيلِ (٢)
ولا ما تبتغيهِ غير ثوبٍ ... ولو من عمر صاحبها طويلِ
وكم عثر الفتى في ذيل ذلٍّ ... لترضى عنهُ ساحبة الذيولِ

قلب المرأة

يا طالبَ الدُّر من الدَّراري
وصائغ الدرهم والدينار
مِن الضُّحى و مَغرِب النهار (٣)
ومن اذا ثارت من الغُبارِ

(١) كلال السيف ثلمه ووقوفه دون المضاء، وفي الحديث: النساء ضعيفات عقل ودين وذلك تركيب طبيعي فيهن اثبتته الابحاث العلمية

(٢) في الخرافات الهندية ان الذي صنع المرأة هو الاله فولكان وهو من أقبح الآلهة شكلاً وأشنعهم منظراً . . . وبيان وجه الحكمة في هذا الطباق موكول الى الاذواق

(٣) المراد بمغرب النهار وقت الطَّفَل وهو الوقت الذي تنكسر فيهِ أشعة الشمس على جوانب السماء فتكون كالذهب وفي هذا الشطر لفٌّ ونشر

ثائرةٌ تلوح في الانوار
كأنها جسرٌ على الانهارِ
يقول أني في الهوآء داري

* * *

ذلك في البعد وفي الانكار
يشبه وصل ربةَ النفارِ
تَقلُّبٌ والحب ذو أطوار
حيناً يماري ثم لا يماري
وكيفما دار بنا يداري
وعزمةٌ كوجهة التيار (١)
وذلةٌ في هيبة الجبَّار
وعزَّة في مسحة انكسار

* * *

آه من المرأة في اقتدار
فانما بذور الافتكار
في قلبها ان عَمَدَتْ للثأر
يَنْبُتْنَ منه شجراتِ النار
وقلب ذات الحسن في اعتباري

(١) التيار لاينصرف عن اتجاهه مطلقاً وكذلك ارادة المرأة اذا عزمت والحوادث كثيرة

صحيفةٌ من صُحُف الاقدار
اكثر ماتكتبُ باحمرار (١)
في لغة الاخيار والاشرار
سطورها أشعَّة الابصار
توقيعُها من الاله الباري
عنوانها الى القضاء الجاري
مُفادها سرٌ من الاسرار
يجمع بين الصفو والأكدار (٢)

***

(١) يريد بالاحمرار لون الدم وفي الامثال الحسن أحمر والمراد ان اراقة الدم كثيراً ما يكون سببها من النساء.

(٢) نقل هنا جملة عن الخرافات الهندية القديمة في خلق المرأة لانها لا تخلو من حكمة وسبيلها سبيل باقي خرافاتهم المأثورة في هذا النحو : زعموا ان كبير آلهتهم لما خلق الرجل استنفد فيه كل مواد الخلق فلم يبق لديه شيء منها فلما أراد خلق المرأة فكر طويلاً ثم أخذ من استدارة القمر ومن اختلاف لون الازهار ومن لين غصن البان ومن روائح العطر ومن عيون الظباء ومن شوك الورد ومن صلابة الالماس ومن طباع الحية ومن وداعة الحملان ومن جبن الارنب ومن شراسة النمر ومن اعجاب الطاوس ومن حلاوة العسل ومن خفة الاوراق ومن حفيف الشجر ومن لطافة أشعة الشمس ومن انقضاض الصاعقة ومن بكاء السحاب ومن نوح القمري ومن حرارة النار ومن برودة الثلج ثم صنع من كل ذلك المرأة . وهم يعنون بذلك انها خلاصة الخلق وان من أصل الفطرة فيها هذه الطباع المتناقضة . وعلى هذا النحو جاءت أقوال كثيرة في المرأة

ونحن في دهر من الأدهار
يُباع فيه الحبُّ بالأسعار
وأصبحت عفيفة الازار
طاهرة الذيل من الأوزار [١]
عَزُوفة النفس عن الاقذار [٢]
من دنس «التمدُّن» الغرَّار
تُعدُّ بين سائر الجواري
كأنها من متحف الآثار [٣]

وقال

في فلسفة النسل يذكر شعوره نحو ابنته «وهبية» [٤]

لولا اثنتان لكان الناس قد جحدوا ... الأُمُّ في لطفها النفسيِّ والوَلَدُ [٥]

(١) الاوزار الذنوب (٢) عزفت نفسه عن كذا ترفعت وابتعدت

(٣) هـذا هو اصطلاح شبان اليوم «المتمدنين» الذين هم نساء الغد . . . وقد قيل ان أرستيب الفيلسوف شفع لبعض اصحابه عند الملك الذي كان لعهده فأبى عليه الملك فخر ارستيب على قدميه يقبلهما فنبهه بعض من كان موجوداً الى التملق والدناءة فقال الفيلسوف لا لوم عليَّ انما اللوم على الملك الذي جعل أذنيه في قدميه . !

(٤) وهبية هي بنت الشاعر وهي بكر أبويها لا تزال في سنتها الاولى حرسها الله وحقق فيها آمال أبيها بمنه سبحانه وكرمه

(٥) ولَد الرجل ووُلْده بالفتح والضم هم جماعة أولاده . ومن أقوال بعض الفلاسفة القدماء في حنان الأُمهات ولطفهن النفسيّ : ان الاله جوبتير (كبير آلهتهم) لما لم يستطع ان يوجد في كل مكان أناب عنه الأُمهات . والمراد من هذا التعبير الرمز الى العناية كما ترى

حب البنين على هذا الورى حُجَجٌ فيها الدليل على الايمان لو رشدوا
هم يهملون غداً حتى اذا خرجت أطفالهم أيقنوا أن الزمان غد (١)
وما الصغار لأَهليهم سوى عقد في خيط ايمانهم بالروح تنعقد
ما أوسع الجوَّ فوق الفخ ان نشبت فيـه القنيصة لولاهـذه العقد

***

أرى البنين الى ألبابنا كتباً خطَّ المحبة في عنوانها الابد (٢)
فان قرأت فآمال مصورةٌ لها معان هي الاسعاد والرغد
ألفاظها في قواميس النفوس هي اا قلب الشفيق وسر الروح والكبد
ولي ابنة هي معنى النفس في نظري وحكمة الفكر والوحي الذي اجد
كأنَّ قلبي يراع ملَّ من يده فخسنها ليَ من نور السماء يد

(١) لا يتم اهتمام الانسان بالغد ما دام منفرداً لانه ابن يومه الحاضر ولكن متى رزق ولداً أصبح كل همه بالزمن الآتي لان الاطفال رجال الغد لارجال اليوم فيوقن الانسان انه لابد من العمل لغده . وكذلك النفس لاينبغي أن تفكر اوتعمل الا لآخرتها

(٢) محبة الابناء عزيزية في طباع الانسان ولكن يوجد اناس شاذين عن كل قاعدة انسانية والشذوذ موجود في كل شيء كأنه من نظامات الطبيعة ومن هؤلاء جبار اسمه (ايكولين) قالوا انه كان في مدينة (بيزا) فوقع في أيدي اعدائه فوضعوه مع أولاده في برج وسدوا عليهم فأكل أولاده . . ثم هلك بعدهم جوعاً . والفظاعة كلها في تصور هذه الحادثة

صغيرةٌ وعجيبٌ أن يكون بها ... قد زادفي كل هذا العالم العدد [١]

« فياوهيبة » ان يسعدذووك فمن ... نور بعينيك يجلو نجمهم سعدوا

***

للدهر شرع ومنه حكمة كُتبَتْ ... على القلوب فلم يجهل بها أحد [٢]

لايصبح البيت روضاً للذين به ... مالم يكن فيه هذا « الطائر الغرِدُ »

أحلام وهيبة

وقال

وهي في الشهر السابع من عمرها يصف احلامها

هفتَ « أم البنين » للاضطجاع ... تُراعيها العناية اذ تراعي

ونامت تمسك الاجفان مهلاً ... وترسلها اشارات الوداع

وأبسط مايكون الحب معنى ... اذا لم يَعدُ حدَّ المستطاع [٣]

« وهيبة » وابتسام الحلم باد ... على شفتيك هل يدعوك داع

(١) لو لم يكن الا أن وهيبه كانت السبب في ايجادهذا المعنى في الشعر العربي لكفاها فضلاً عليه

(٢) الطائر الغرد هو هـذا المخلوق الصغير الذي يصيح (بابا . ماما) الخ وهي الاصوات الملائكية في الارض . ومن الناس اجلاف لاعواطف لهم كرجل من الفلاحين كان كثير الاولاد فلما ولدت له بنت وقد كادت روحه تزهق من كثرتهم سماها « زهقنا » ولم يزل ذلك اسمها الى اليوم

(٣) قبل ان ينام الطفل الصغير يفتح عينيه و يغمضهما هنيهة فكأن ذلك اشارات منه لوداع اهله في انصرافه عنهم الى ان يستيقظ

وهل ناغتك امك في دعاب ... كأَنَّ كلامه لغة الطباع
لمحت وراءه من كل معنى ... وان كان ابتداعاً في ابتداع
فمن « بي بي » الى « بابا » الى ما ... يشذ عن القياسي والسماعي
ولفظٌ تقبلين له ولفظٌ ... ترين له معاني الامتناع
فكيف تميزت لك وهي طرًّا ... سواء عندنا في الاختراع

***

« وهيبة » ماترين الآن حتى ... أشرت بمثل مصّات الرضاع
يخادعك المنام وذا دليل ... على أن الحياة من الخداع
فما الأحلام غير حياة ضيق ... وان الضيق بعض الاتساع (١)
كأنك يا وهيبة لم تزالي ... ببعض الروح في ذا الارتفاع (٢)
فان نمت التقى شطرٌ بشطر ... فكان الحلم لذة الاجتماع
وما يقضي الصغير اليوم نوماً ... لأمر غير هاتيك الدواعي

***

رأيتك يا وهيبة ذات ثغر ... عليه من السما بعض التماع

(١) الاحلام حياة ضيقة لان الانسان لا يكون فيها كامل التصرف والضيق انما هو اتساع ما وعلماء المنافع (وهم الباحثون في منافع الاعضاء) يسمون الاعمال التي تظهر من آثار قوى النفس في بدء الطور الأول من الحياة عند ما يكون همُّ الطفل قاصراً على الغذاء والنوم « بالمنعكسة » لانها موقوفة على حركة الدقائق العصبية أما الفلاسفة فيسمونها « القوى البهيمية » أو الشهوية

(٢) الارتفاع هنا كناية عن السماء والتعايل في هذا البيت شعريٌّ محض لان نوم الطفل ناشىءٌ عن ضعف قواه وتأثره من اليقظة لما يعرض له فيها

فلم أشكك وربك أن نجرا بيان يطير من هذا الشعاع
نظرت اليك في موج الاماني كأنك درة لمعت بقاع (١)
فان بلغت بك الدنيا فسيري الى العلياء من غير انقطاع
فان النفس مثل العين تسمو اذا ضربت بمنطلق البقاع
عجبت ليائس ترك المعالي وأحجم عن كبيرات المساعي
ألم يك قبل هذا الدهر طفلاً يشق عليه حتى مدُّ باع
ويحسب بسطة الدنيا جميعاً كما بين الذراع الى الذراع
ومن لم يتسع في الفخر يعجز وما جدَلُ الفتى بعد اقتناع (٢)

(١) المراد ان هذه الامواج عميقة لان الاماني في طفل صغيرة تكون بعيدة طبعاً

(٢) الجدل والمجادلة والمناظرة واحد فاذا تم الاقتناع ببرهان أو بمقدمة له انقطع الجدال وصار عبثاً لانه لا يكون الا للحصول على الاقتناع . وكذلك من أيقن بعجزه عن المعالي انقطع عن السعي لها فاذا لم يتسع فيها حتى يظل في حركة كان ذلك منه مقدمة للعجز ولذلك قيل الحركة بركة

الباب الثالث

في

الوصف

القمر

أطلَّ علينا والهوى يتعطَّفُ ... كما أقبلت فتَّانةٌ تتأسَّفُ
وبتُّ أظن البدر في دَوَرَانه ... جناحَ الأماني فوق رأسي يُرَفرفُ
كأن نهاري نامَ فالبدرُ والدجى ... له حُلُمٌ في نومهِ يتألف
ألستَ تراها كالخيال تلاشياً ... متى انفتحت عين من الصبح تطرف
كأني أرى بين الكواكب نسوة الـ ... عزيز وهذا البدرُ فيهنَّ يوسفُ (١)
كأن النجومَ الغرَّ سبحةُ زاهد ... مُعلَّقةٌ في الأُفق والبدرُ مُصحَفُ
كأنك يا بدرَ الكواكب بينها ... فتاةٌ مشتْ بين الازاهر تقطفُ
كأنك في مَوْج الضياء مليحةٌ ... تَراقصُ في ماء الغدير فيرجفُ
كأنك في شطِّ الحنادس جسمها ... وقد سترت من بعضه «تتنشفُ»
تمثَّلَ فيكَ الحبُ والحسنُ للورى ... فأنت بمعنى الحب والحسن تُوصفُ

---

(١) العزيز هو فرعون مصر الذي كان يوسف عليه السلام في زمنه وقد كانت امرأة العزيز تعشق يوسف فلامها نسوة في المدينة فدعتها وأعطتهنَّ مدى وفاكهة وقالت ليوسف اخرج عليهن فلما رأينه اكبرنه وقطعن أيديهن يحسبن انهن يقطعن الفاكهة لما أخذن به من جماله . فالاضافة في نسوة العزيز نسبية فقط

فبينا ترى في التمِّ تُدنِفُنا هوًى ... وتُصبي غوانينا اذا أنت مدنفُ
كأنك كرسيُّ الزمان وهذه الـ ... نجوم كراسيٌّ صغار تصففُ
كأنك سِترُ الغيب أُسدِلَ بيننا ... وبين السما فالغيبُ هيهات يكشفُ
كأن الليالي صوَّرتها يدُ الهوى ... وفيها ضياء البدر وشيٌ وزُخرُفُ

***

ولما تعاتبنا اتهمت ودادَها ... لتكملَ لذات الهوى حين تحلفُ
وقلت اكتبي لي بالعهود رسالةً ... تلطِّفُ من شكِّ الجوى وتُخففُ
فشدَّت على قلبي وقالت بلوعة ... اذا ما التقينا فالهوى منك أعرفُ
وان غبتُ كان البدر مني رسالةً ... اليك وما فيه من المحوِ أحرفُ(١)
فقلتُ بلى ان باعدَ الدهرُ بيننا ... فهذا الذي في أمرنا يتكلفُ
يُضلِّلُ عذّالي فيبدو لعينهم ... اذا راقبوهُ واقفاً وهو يزحفُ(٢)
فان تبصريه فابسمي للقائهِ ... أرى من هنا نور الثنايا فأهتفُ
وان مرَّ في واديكِ رطباً شُعاعهُ ... فقولي اذن اني من الوجد أذرفُ

(١) المحو هو السواد المنتشر على وجه القمر وقد اختلفوا فيه فذهب قوم الى انه شبح ما ينطبع فيه من جبال الارض ونحوها كأنه مرآة وقال آخرون انه سواد النصف المظلم من القمر الذي لا يقع عليه ضوء الشمس قالوا والصحيح ان بعضه لون الظل الذي تلقيه جبال القمر المرتفعة على وهاده والبعض الآخر لون الصحاري التي فيه وما يتخلل جباله من الاتربة والرمال وبقايا العفاء وحينما يكون القمر بدراً فذلك المحو لون تلك الاتربة

(٢) يسمون هذه الحركة الجزئية للقمر بالتمايل وقد قسموه الى ثلاثة أقسام تمايل طولاً وتمايل عرضاً وتمايل يومي

وان هو ألقى فوق فيك ابتسامةً ... فذاك سلامٌ من في يتلطفُ
وإن جاء يوماً خاشعاً في غمامة ... ومرَّ نسيمٌ تحته يتأففُ (١)
فهاتيك روحي قد أتتك فسلمي ... وذاك وداعي حينما كدتُ أتلفُ

وقال

يصف غروب الشمس والليل

تدرَّجت الشمس وسنى الجفون ... لمضجعها في سرير الافق
ومدت يداً من وراء السحاب ... لتكشف عنه ملاء الشفق (٢)
ونامت فأرخت عليها النجوم ... ولائدها كِلَّةً من غسق
وأقبل يهمس هذا النسيم ... باذن الربى ساعةً وانطلق
فمالت من النوم اغصانها ... على بعضها والتحفنَ الورق
ونام بها الطير بعضٌ سكوت ... وبعضٌ بأحلامه قد نطق
وقد فاض بحر الكرى فيضةً ... تلاعب زخارها بالحدق

(١) المراد بتأفف النسيم انه حارّ كما تكون زفرة الهم ونحوه . واستحسان القمر والتغزل فيه عادة صحبت الانسان في كل دهر حتى ان قبائل الهوتانتو لعهدنا وهي قبائل ضاربة في افريقيا تقيم كل سنة حفلة رقص عامة اكراماً لهذا البدر . ويعتقدون انه خالق الموجودات

(٢) الشفق هو النور الذي يكون بين غروب الشمس والعتمة ويكون ايضاً بين الفجر وطلوع الشمس وبعض هذا النور حاصل من انكسار أشعة الشمس حينما تسقط من الافق على كرة الهواء واكثره يكون من الانعكاس وتجد هذا الشفق ملوناً كأنه الملاء، وهي جمع ملاءة

فمنها تطوّح في لجة ومنها وشيك ومنها غرق (١)
ولكنني خفت من جوره فاركبت عيني سفين الارق

***

فيا هند ذا كله باطلٌ وان صح اما التجافي فحق (٢)

وقال

نجوم الليل والغزل

لاتحسبي أنجم هذا الدجى أشركها في لهونا مشركُ
الليل مسرور بما بيننا . وهذه أسنانه تضحكُ

وقال

وهو معنى غريب

أرى ليلاً يموت الصبح فيه ويحيي رأفة بالعاشقينا
كأنَّ وجوه انجمه اذا ما طلعنَ وجوه قوم صائمينا
وقد لبس السما فبدت عليه كمرقعة الرجال الزاهدينا
يذكّرني وهمّي أيّ همّ بابناء الغرام الهالكينا
فيبدو الافق مقبرة لعيني تضيء بها «قبور الصالحينا» (٣)

(١) وشيك أي قريب الغرق

(٢) يريد بهذا كله سهره ومراقبته الطبيعة في هواها ومع ذلك فهي تنكر هذا الهوى وتجافيه

(٣) في الاثر ما معناه ان القبور يكون عليها نور من اعمال اصحابها وهو معنى مجازي اما النور الذي يرى على بعض القبور القديمة في وقت الظلام فهو مادة

وقال

في ليلة انس

من أشعة النظر　　لأشعة القمر
من سهاد أعينه　　لكواكب السهر
من ذبول مقلته　　لنضارة الحور
من مطالِ ليلته　　لمدبر القصر
من نحوس طالعه　　للقضاء والقدر
أشتكي ولي كبد　　ان شكوت تنفطر
غير انه ضرر　　مُسعِدٌ على ضرر

***

يا فؤاد ملتفتاً　　نحو مشرق الغرر
قد نجوت من خطر　　ووقعت في خطر
طائر بلا حذر　　واقع بلا حذر
تارة هنا وهنا　　مثل نحلة الزهرَ
لحظهنَّ منكسر　　في فؤادِ منكسر
وهو فيه منخفض　　للدلال والخفر

الفسفور المنتشرة في الهواء من الجسد المتحلل لان جسم الانسان يحتوي على كمية من هذه المادة . وقد كان القدماء يظنون ان الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب مساكن لارواح عظيمة هي واسطة بين العالم وخالقه كما ان الاجسام مساكن للنفوس . ومن هنا نشأت عبادة هذه الاجرام ولعلها ايضاً منشأ خرافة العقول العشرة

وهو فيه مرتفع　　للصدود والبطر
في العيون ذو أثر　　في القلوب ذو أثر
مثل ريشة نفضت　　صبغها على الصور (١)

٭٭٭

النجوم ساطعه　　في سماء معتكر
مثل مشط غانيه　　في ذوائب الشعر (٢)
والسماء حاليه　　بالكواكب الزهُر
كنسيج عاشقه　　خرمته بالابر
والنسيم من سقم　　يرتمي على الشجر
مثل وعد مخلفه　　سائر الى حذر
والدجى لها قمر　　كجبين مفتخر
هو تحت لجتها　　درة من الدرر
وهو بين مرتفع　　مرة ومنحدر
مثل درهم ورِق　　راقص على الظفر

٭٭٭

ليلة بها عصُر　　قد جرت الى عصر
مر لي زمان هوى　　وهي منه كالخبر
فنسيمها سحر　　نائب عن السحر

---

(١) المراد بها ريشة المصور

(٢) يريد مشط غواني هذا العصر وهو المرصع بالالماس

وصباحها ثمل … قد دعي ولم يزر
عطلوا لها فلكا … ان أدير لم يدر
يشغف المحب هوى … بجمالها النضر
ذاكر أحبته … بنسيمها العطر
هي روضه سقيت … من غمامة العمر
القدود اغصنها … ينثنين في الازر
والقلوب من ثمر … في الغصون منتشر
واللحاظ طائره … قد نقرن في الثمر
والحظوظ قائمه … بين خيرة الخير
كلما هفا أمل … نبهوه بالوتر

٭٭٭

الكؤوس جائره … لم تدعْ ولم تذر
كالقطار واقفه … في «محطة» السمر
والعقول أجمعها … أصبحت على سفر
العيون زائغه … في المناظر الاخر
تحسب الضيا نهراً … والرجال كالجزر
تحسب الدجى سحبا … والنسيم كالمطر
تحسب المدام لظى … والحباب من شرر
تحسب السما نُزُلا … والنجوم كالسرر

٭٭٭

تلك ليله جعلت ... في الورى من السير
أهلها شمائلهم ... سورة من السور
والنديم بينهم ... قطعة من الهذر
خلته اعاد له ... روحه أبو العبر (١)

وقال

في صوت فتاة ناعمة الدل

حديثها مثل حفيف الصبا ... أقل ماهيج منه هواه (٢)
ولفظها مثل ديب الجوى ... أقل ما أثر فيه بكاه
تغنت الاملاك في قلبها ... فرددت رجع صداها الشفاه
وكل ما يطرب في أرضنا ... مما برى ربك او في سماه
يُسمع في حرفين من لفظها ... ان هي قالت من جوى الحب «آه»

وقال

يصف الصباح

يا كوكب الليل دَهاكَ الصباحْ ... فاصرف الى الغرب عنان الرياحْ

(١) ابو العبر رجل متحامق كان في زمن بني العباس وكان يمزج الحكمة بالسخافة دائماً ومن قوله : اذا حدثك انسان بحديث لا تحب ان تسمعه فاشتغل عنهُ بنتف ابطك حتى يكون في عمل وأنت في عمل . . .

(٢) الضمير في هواه و بكاه عائد على العاشق . وقد لحّن هذه الابيات وغنى فيها بلبل مصر الشيخ سلامه حجازي ووضعها في (اسطوانات الفونوغراف وله فيها صوت « أقل ما يؤثر البكاء »

واختفِ يا ليل بشعر الدُّمى   من الغواني وعيون الملاحْ (١)
ضاقت بك الحيلة في عسكر   منفر حتى ذوات الجناحْ (٢)
يفر حتى النوم من وجهه   وتهرب الاحلام خوف افتضاحْ
فكم محب اسعدته المنى   بخلسة الطيف التي لا تباحْ
فجاءه بين الوفا والرضا   وكوكب السعد جرى في النجاحْ
وزال ما قد كان من وحشةٍ   تعترض الانفس عند السماحْ
حتى اذا كادت دموع النوى   تجف من انفاس ذاك المزاحْ
أقبل هذا الصبح من « برده »   يفتش الاجفان عنه فراحْ (٣)
وكم نسيم كان يسمى بما   يحمله عمن تشكى وباحْ
من دمعة تغسل جرح الجفا   ورقةٍ تعطف رأس الجماحْ
أو نفحات من غواني الحمى   يكدن يمسحن وجوه القباحْ (٤)
أدركه الصبح باجناده   فتاه من روعته في البطاحْ

* * *

يا صبح ان كنت حياةً فما   لبث حياة كتبت للكفاحْ (٥)
الناس في ايدي أمانيهم   والشر في كفيه روح الصلاحْ

---

(١) الدمى جمع دمية وهي تصاوير العاج

(٢) يريد بالعسكر الصباح وهو أمواج الضياء. وذوات الجناح الطير

(٣) تفتيش الاجفان كناية عن استيقاظ النيام ولا تكاد تجد مثل هذا التصوير

(٤) المسح هنا من قولهم على وجهها مسحة من الجمال

(٥) يريد بالكفاح حركة الاحياء واضطرابهم في أمر المعاش وهو تنازع البقاء

والارض ميدان لهذا الورى يقصف منهم بالرماح الرماح
وان تكن يا صبح موتاً فما أهنأ قلباً قد شفي واستراح
قد عربد الأحياء من سكرهم وانما الشمس لهم كأس راح (١)

وقال

الطبيعة في الجفاء

تالله لو سمع الزمان تنهدي يوم الجفا لم يبق في الدنيا جفا
ولو أن قرص الشمس كانت ناره هجراً ومسته المدامع لانطفا
ولو أن جوّ الليل كان ظلامه بعداً وشاهد ما بقلبي لاختفى
فالليل عندي والنجوم تزينه كالنعش تجعله الزهور مزخرفا
وكأن هذا الصبح بعدكم يد شهرت لتقتلني حساماً مرهفا

وقال

شمس الربيع

أصبح نبتُ الرُّبى فطيما لما مضت أشهرُ الرضاع (٢)
وما أرى ذا الربيعَ الا «مهندس» الحسن والطباع
زيَّن قصر الهوى وقصر الـ هوى من الدهر في انصداع
ففضَّضَ الليل بالدراري وذهَّب الصبح بالشعاع

* * *

وليلة بدرها ابتسامٌ كأنه موعدُ اجتماعِ

(١) العربدة حركة السكران فشبه الاحياء بالسكارى والشمس بالراح وهي الخمر لان لها تأثيراً في اضطرابهم بل في كل الوجود

(٢) أشهر الرضاع هنا هي أيام الشتاء لما فيها من المطر

بتنا فكانت لكل واش   كأنها نوبةُ الصداع
من قُبلة منحةً وأخرى   لطاعة الدَّل بامتناع
كوردة فتّحت وضمّت   بغير صوت ولا سماع
والليل مثل السفين باتت   يهزُّها الموج لاندفاع
فلم تكن ساعةٌ وأخرى   حتى اتى الفجر بالشراع (١)
ولاحت الشمس من بعيد   كأنها قُبلة الوداع

وقال

الياسمين السارق

لاحتكام الهوى غناء الحمامَهْ   أقعد الغصن في الربى وأقامَهْ
كتب الروض في الطبيعة شعراً   ليس يدري غير الحمام نظامَهْ
فهو ان تبدُ صفحة من غمام   هزَّ من أغصُن الربى أقلامَهْ
تسألون النسيم كم ذا يحيّي   وغصون الربى ترد سلامَهْ
هي مذْ قيل أشبهتْها قدود   لم تجد غير حسرة وندامَهْ
ما تَرَوْن النسيم صار مقيماً   كل يوم على الغصون « قيامَهْ »

***

أيها الروض قد أسأت محباً   كان قدماً يبثُّ فيك غرامَهْ
هجرت من يحبها الزهر لمّاً   سرق الياسمين منها ابتسامَهْ

وقال

فاض سيلُ الشرق حتى جرفت   موجةُ الصبح عن الارض الظلاما

(١) الشراع كناية عن الصباح وهي من ألطف أنواعها

ثم لمّا داهمت أعيننا سبحتْ فيها وأغرقن المناما

وقال

القلب المتعب

لِيَ قلبٌ كله صـدأٌ من غبار الهجر والمِحَنِ
فيهِ من صدع الهوى أثر هو باب الهمّ والشّجَنِ
أغرقته الحادثات الى أن رماهُ شاطىء الزمنِ

٭٭٭

من لعيني أن تلم بها خلسة من غفلة الوسن
أشتكي فيها بلا عذل وأريح النفس من بدني
ليت شعري ما أفدت اذا قصفت كف الهوى غُصني
بعت ايامي بلا ثمن واشتريت الموت بالثمن

وقال

في مطرة من مطرات الخريف

الروض ظمآن بأنفاسنا لذاك هذي السحب ترويه
والصيف قد مات وراحوا به فتلك عين الشمس تبكيه
ولاح شعري في خدود الهو(ا) فاطلع الرعد ليلقيـه[1]

(١) يريد بما لاح في خدود الهواء قوس قزح وشبهها بالشعر لان كليهما ألوان وخيالات وان كان ذلك في احدهما حقيقة وفي الآخر مجازاً . وهذه القوس تظهر متى كان في استقبال الشمس سحابة ممطرة وكانت الشمس بقرب الأفق والناظر مستدبراً لها . وعلة ظهورها انعكاس أشعة الشمس عن قطرات المطر المتساقط من الجوّ بعد انكسارها فيها وانحلالها الى ألوانها السبعة وهي الاحمر والنارنجي والاصفر

وهند قد غابت جبين السما　　تجرت الغيم لتخفيه
وكلما افتر لنا ثغرها　　تلألأ البرق ليحكيه
ياهند ما الحسن سوى صفحة　　من دفتر الغيب ومافيه

وقال

في قلبي

وهي فنون من الوصف

خواطر في قلبي يضيء بها الفكرُ　　أشعتها في كل منبثق فجر
لها رونق من حكمة العبر التي　　تسامت بها الدنيا او انحدر الدهر
كما من شعاع الشمس والريح والندى　　تناول سر الحسن في أرضه الزهر (١)
جلوت على الايام أسرار وحيها　　بوصف يقول الناس ان اسمه الشعر
تجسم فيهم لفظه وتحكمت　　معانيه حتى ذاك درٌّ وذي سحر
اذا قلبوا في شطر بيت عيونهم　　تنزل من وحي القلوب لهم شطر
وما عرفوا من خُدعة السحر عندها　　أقطر على زهر هنالك ام سطر

والاخضر والازرق والنيلي والبنفسجي ويظهر اللون الاحمر في أعلى القوس ثم يكون ترتيب سائر الالوان على ما ذكرنا . وقد تكون تلك القوس اثنتين فيكون ترتيب الالوان في الخارجة على العكس أي من البنفسجي في أعلاها الى الاحمر في أسفلها. وفي كل ذلك كلام طويل

(١) يقول فلاماريون اكبر علماء الفلك ان الارض كلها لا تتناول من أشعة الشمس وهي ذلك البحر الناري الهائل الا نصف جزء من مليار (ألف ألف مليون) جزء وهذا النصف على صغره أعظم من مجموع قوة ما يحرقه كل أهل الارض في سنة كاملة

كأن يراعي من أشعة « رنتج » يري من وراء الحبر ماستر الحبر [1]
بلفظ ترى معناه من قبل لمحه كما فاح من زهر على غصنه العطر
تماداهُ أهواء النفوس كأنه من الدهر للنفس التي ساءها عذر
وما كلماتي غير نبض العلى وما لساني الا قلبها وهي الصدر
أعدت نشاط الدهر بعد مشيبه فقد بات مختالا وطرَّته البدر
فقولوا لحسادي على بعد بيننا تظنون أن السحب فوق السما جسر
فان يك في هذي العصافير طائر هجف فما شاءوا سوى اسمك يا نسر [2]
ولي كلمات لو يطيرون مرةً لامست ومنها كل قافية وكر [3]
ولكنهم ان يصعدوا يتسفلوا دواليك ذا شبر وذلكم شبر [4]
صغار على كبر وشر فضيحة وسخرية طفل صغير به كبر

(١) رنتجن هو صاحب هذه الاشعة المعروفة باسمهِ وهي اشعة تخترق الحجب الكثيفة فتظهر للعين ما وراءها لا يقف في سبيلها شيء، وتتألف من بطارية يصدر عنها مجرى كهربائي قوي الفعل وبعض أنابيب على وضع خاص مغطاة بغلاف من المقوى الاسود الدقيق موضوع تجاهها ورقة مغشاة بمحلول معروف فتتألق هذه الورقة بضوء ساطع وهاج مصدره المجرى الكهربائي في الانبوبة وهذا الضوء يتخلل الاجسام وشرح تركيبها وكيفية الادراك بها طويل وهي مبنية على أشعة تعرف في العلوم الطبيعية « بالاشعة القطبية الايجابية » وهذه ناشئة عن تفاعل كهربائي

(٢) في القاموس الهجف الظليم المسن وقد حصره في هذا النوع ولكن بعض العرب استعمله للنسر واستعمله الشاعر هنا في العصافير لمكان النكتة

(٣) ضمن الوكر وهو العش معنى القفص

(٤) دواليك أي مداولة

على انها من سنة الكون لم يزل ... يضايق من خلط التراب به التبر

***

وفي القلب مني لوعة لو تخلصت ... من الصبر يوماً واحد اقتل الصبر
وفيه وكم فيه من الحب والجوى ... فذاك له أمر وهذا له أمر
وفيه من الآمال ما العمر دونه ... فلا سعد الا أن يزاد لنا عمر
وفيه من الايام ماض مكفن ... بدمعي عليه من طفولته قبر
وفيه وما فيه وذا الدهر لم يزل ... يعد علينا موجةً وهي البحر
على أنني لم أفرغ الهم كله ... ولكنه نزر وقلَّ له النزر
تعلمت لطف الوصف من لغة الهوى ... ففيها جنون القلب قيل له الهجر

وقال
يصف نور الكهرباء

يا آية في صفحة الليالي
من سورة الكوكب والهلال
أقام منك شاعر الجمال
تتمة الدليل للعذال
على القلوب وعلى الآمال
فأنت للعاشق في المثال
أشعة لكن من الدلال
في ظلمة الهجر او الملال
بل أنت عندي شعلة الخيال

تمثلت من رونق الجلال
في قطعة من صفة المعالي
او مثَل يسير في الامثال
أو دمعةً الهجر على الوصال
وانت ما بين الزمان الخالي
وبين آيات الزمان الحالي[1]
وبين مايأتي في الاستقبال
معنى الرجا في لفظة المحال

(١) يشير الى أن اختراع مثل هذا النور وغيره من باقي الاختراعات كان كالمحال في الزمن الماضي وهو اليوم من السهل فلا يبعد ان يتحقق المحال عندنا في الزمن الآتي على هذا القياس

وهذا فصل[١]

من كتابه « ملكة الانشاء » بعث بهِ لصديقهِ الاديب الياس افندي العجان أحد الصيادلة وكان استبدل نور الغاز بالكهرباء في المكان الذي هو فيهِ ثم كان يعبث باللولب كلما زاره صديق فيطفئ النور فجأةً ويبعثه فجأةً لدعابة فيهِ . قال:

ما هذا صرف الله عنك شدة البياض . في غير الاعراض . أسئمت الليل فأذريته صبحا . وأوريته قدحا . أم زهدت في السواد . لغير الحداد. وللعيون والأهداب. لا الفنون والآداب . فأطلعت من سقفك الكواكب تتألق . كالعيون السواكب تتدفق . وعفت تلك المصابيح . وهي كالحظ تميل مع الريح. فان كنت أشفقت ان تطول السنتها فتسود عرض الحائط فان قطع اللسان . بالاحسان لا بالهجران . وما الذي جنته عفا الله عنك حتى تُجفف من الهجر لهَوَاتها . وتأخذها بغير هفواتها . وتطرحها جانبا. وتنأى عنها مغاضبا . فلا كلمة مواساة تطفئ من لوعتها حتى ولا « أف ». ولا نفخة من صدرك الى صدرها . تخفف من حرها . ولا عناية من أمرك بأمرها . تجبر من كسرها . وهل عمي الليل وسألك العلاج . فتضع له اعيناً من زجاج . ام سألك الناس آية تخرق العادة فمثلت لهم بعد الغروب الشروق . أم انتجع غيثك بعض المجدبين فخيلت له البروق

(١) رأينا ان ننشر هنا هذا الفصل لمناسبتهِ القطعة السالفة في وصف الكهرباء

وما اشك انك امسيت تحاول تجزئة القمر . فتكون منك لكل أمة « فلقة » الى آخر العمرُ .

لا أعجب والله من فرعون حين قال هذه الانهار تجري من تحتي. الا انت حين تقول هذه النار أجري من تحتها . وليتني اعلم أهي استعارةٌ أم مجاز . ومن مناهل الفاز أم من مسائل الألغاز . وكأني بأصابعك وقد عرفت أن لها خواتم في الهواء . فهي تلعب بها كيف تشاء . مرة تحجب لجليسك العمى . وتتركه لا الى الارض ولا الى السما « بأسفه ليل كلما شئت أظلما » ومرة تذكّره بيوم النشور، فتبعث عليهِ النور ، بعد ان يكون في ظلمة القبور ،

هذا على ان كواكبك من الزجاج ، لامن الأبراج ، فكيف لو كنَّ ، كما لا تظن ، أكنت تبتلع الشمس ، لتقول أنا اليوم والأمس ، أم كنت تلف الارض بالارض ، لتنزل علينا آية « ظلمات بعضها فوق بعض . . . . »[1]

واني لأَنتظر لك ليلة تخفت فيها زفير الكهرباء فينقطع بعض الاسلاك. ويقع وحش الظلمة في تلك الشباك . هنالك اذا استوحشت فرفعت رأسك غنتّك القناني لا القيان . وترامت على قدميك تفدّيك بدمائها المختلفة الالوان . واذا مددت رجلك الى الباب . ليكشف لك النقاب ،

(١) هنا سجعات أهملناها لانها مما تقتضيه المداعبة

ويميط هذا الجلباب ، حسبك تُحَيِّيهُ خيالك . وأبى أدام الله عليه العافية الا ان يقبل جبينك ويلثم فاك . وربما مدّ ذراعه الى الطوق . والظلمة تدعو الى شدة الشوق . فيظنه عناقاً . وتظنه خناقاً . ثم تلتمس المخرج فتحسب الحيطان . انك تسألها الحنان . فتضمك اشفاقاً الى صدرها . وتأخذ رقبتك لنحرها . وهكذا من حبيب الى حبيب . ومن نصيب في هذا الهوى الى نصيب . حتى يُوَفَّى الكيل . ويكشف عنك الغطاء فتبصر آية الليل . والسلام

الباب الرابع

في

الغزل والنسيب

قال

أروني سوى دار هنالك معهدا ... فأصرف هذا القلب عما تعوّدا
وهل غير واديها يرق نسيمه ... وتشربُ أزهار الغرام به الندى
اذا خطرت منه على القلب نفحةٌ ... توهمتها من شدة الشوق موعدا
وأعشقه حتى لأحسبني أرى ... باشجاره من لذة الوجد حُسدا
هنالك لاشكوى سوى قُبل الهوى ... ولا عتب الا صوتهنَّ مرددا
هنالك دارٌ قدَّس الحب أرضها ... فكل فؤاد في ثراها تعبَّدا
تُضلُّ بما فيها من الحسن والهوى ... وتُهدي بما فيها من الطهر والهدى
فما هبَّ منها الريح الا مُعطرا ... ولا مرَّ فيها الطير الا مغردا
ولي عند أهليها فؤاد أقمته ... على نورها تيك الكواكب مرصدا
ولكنَّ في مرآته صدأ الأسى ... ولا شيء الا ريقها يذهب الصدا
نفورك يا حسناء غشَّى قلوبنا ... وما الحزن الاظلُّ هجرك والردى
وحيرَّني في الحب قلبي كأنه ... صغير تغاضى أهله فتمرّدا
اذا منعوه لم يطيقوا بكاءه ... وان أرساوه في هواه تعوّدا
فيرضونه طوعاً وكرهاً لحبه ... ويتعبهم في حبه متعمدا

***

فداؤك يا ليل الرضا العمر كله — وقلَّ شبابي أن يكون لك الفدا

فما لك لا تلقي على الدهر نظرةً — كأنك قد أمسيت يا ليل أرمدا

أرى كل ليل ينتهي عند حده — وليل الجفا يمضي مع الهجر سرمدا

وما انعكس الدهر القديم لهجرها — فطال ولكن كل همي تجدّدا

فأنسى بنمّ اليوم يوميَ كله — وألهو بهمي في غدٍ ناسياً غدا

مضى زمنٌ عيناه قلبي وقلبها — وأصبح في قبر الليالي مُوَسدا

وهذا زمانٌ ممسك بيد الجفا — ولو لم يكن أعمى لما أمسك اليدا

فأين ليالٍ كنَّ ان مرض الهوى — سرين له من جانب الوصل عُوَّدا

وأين نسيمٌ كان ان حف حولنا — تناثر في جوّ الرياض تنهّدا

فان مسَّ قدَّ البان أرقصهُ هوى — وان مس خد الزهر فيها توردا

ألا انما هذا التنهد حيرةٌ — أضلت فؤاداً مؤمناً فتشهدا[1]

أو الحسرات الفاجعات لمهجة — ضغطن على همّ بها فتصعدا

أو الحزن في صدر الشجيّ وقد طغى — على خاطر في نفسه فتبدّدا

أو الروح قد ضاقت فهمَّت فأرسلت — لها نفساً يبتغي الطريق ممهدا

والا فصوت القلب مسَّهُ فرحةٌ — كما اطفأوا بالماء جمراً توقدا

فيازمني أملِ الهوى لأخطه — وأوح الى قلبي الغرام لأنشدا

فلست أرى أن تنقضي بسوى الهوى — ولست أرى ان تنقضي في الهوى سدى

(١) التشهد قول أشهد أن لا اله الا الله وعادة المؤمن اذا قالها أن يمد صوتهُ في المدّ الاول الواقع في لفظة لا حتى يشعر بها كأنها خارجة من قلبه

وقال

يعارض بيتي عنترة المشهورين في هوس
الشوق وحماسة الوجد (١)

ولقد ذكرتكِ يائساً فكأنما ذكراكِ مصباحٌ لقلبي المظلم
بخواطرٍ غُرٍ تسيل كأنها ضحكات ثغركِ للمحب المغرم
هزّت دمي حتى تخيّلَ لي الهوى أن القلوب اذنْ ستخاق من دمي

وقال

أحب التي لم أخلُ من هجرها ولا خلا هجرها لي من عذول ولائم
نبيّةُ شرع الحسن من معجزاتها لمن عذلوا انطاقها للبهائم (٢)

(١) البيتان المشهوران لعنترة هما :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ويقال انهما منحولان له

(٢) لابن حزم : الحسن شيء ليس له في اللغة اسم يعبر بهِ عنهُ ولكنهُ محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه وهو بُرد مكسو بهِ الوجه واشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانهِ وان لم يكن هناك صفات جميلة فكل من رآه راقهُ واستحسنهُ وقبله حتى اذا تأملت الصفات أفراداً لم ترَ طائلاً وكأنهُ شيء في نفس المرئي يجده في نفسهِ الرائي اه وقيل الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة أعضائهِ والملاحة تعمها جميعاً . والمراد بالبهائم في البيت العذال أنفسهم وانطاق البهائم من آيات النبوّة

وقال

في وحدة الحب

تقول اني مُشركٌ في الهوى　　　ياهند هل يهوى الفؤآد اثنتينْ
الحب طفل أنت أمٌّ له　　　والطفل لا يولد من مرأتين

وقال

وَشوا اليك ولما　　　رأوا جفاءك قالوا
وعرَّضوا بيَ حتى　　　اذا صغيتِ أطالوا
لابدع ان حسن الهجـ　　　ـرو هو منكِ دلالُ (١)
لون السحائب كالطين　　　وهي ماءٌ زلالُ

وقال

في بعض انواع الحب وهو ما لم يكن فيه لقاء

يبيع الهوى صبري ونومي بلوعة　　　وسهد ولا ادري اذن أين سوقهُ
ويقتادني شرقاً وغرباً ولم أزل　　　أسائل نفسي أين تفضى طريقهُ
أحب ولا أدري وأدري ولا أعي　　　وان أعِ لا أسلوولست أطيقهُ
ومن غمرته لجة البحر غمرة　　　فطاح بها لم يعنه ما عميقهُ
وما لوعتي اني أموت بلوعتي　　　ولكن مقال الناس ذاك عشيقهُ
وكم «فلكيٍ» في الهوى سائل اذا　　　رأى مغربي من اين كان شروقهُ (٢)

(١) يقال ان الهجر أربعة أنواع هجر ملال وهجر دلال وهجر مكافأة على الذنوب وهجر يوجبهُ البغض المتمكن في القلوب

(٢) كنى بفلكي الهوى عن العاذل المتطفل والمراد بالمغرب مغرب الحياة ومن أين كان شروقه أي من أي أفق ظهر هذا الحب

نموت وذاك الحسن يجهل ما بنا　　وهيهات يدري البحر أيٌّ غريقهُ

وقال

في حسناء عاذلة

العــذل من ثقله　　للقلب لم ينزل
واللحظ من لطفه　　قد حل في المقتل
يا ربة الحسن ما　　في الحسن ان تعذلي
للكف قفَّازها　　والنعل للأرجل (١)

وقال

في شدة النحول

تقول اما ترضى مع الحب والجفا　　بأنك حيٌّ والحياة كثيرُ
وكل الذي أبقاه مني غرامها　　بقيــة نوم في الجفون تطــير
كأنّيَ من « غاز الانارة » في الهوى　　فبينا يرى غازاً اذا هو نور

وقال

ندى الغرام

بكت في روض أحزاني وحبي　　بأطهر من ندى زهر الربيع
وكانت فيَّ عاطفــة التصابي　　فقد مزجت بعاطفة الخشوع
وكنت رميت في قلبي بسهم　　فهــذا آخرٌ بين الضلوع

(١) المراد ان العذل لا يناسب الحسن لان من الحسن حسن الكلام كما ان النعل لا تناسب الكف مثلاً . والقفاز هو ثوب الكف الحريري وقد يكون من الجلد الرقيق

دموعك في الحياة ندى غرامي وان كانت تسمى بالدموع

وقال

انما الحب لحاظ فائتلافٌ فهيامُ
غير أني في هواها نظرةٌ عندي غرام (١)

وقال

في الغانيات المتفرنجات

قائمات يمسن بالقامات هزهن الغرام للغارات
فنصبن اللحاظ جسراً الى النفـ ـس وأرسلن فوقهُ الحسرات
وجعلن ابتسامهن نوراً الى القلـ ـب ليكشفن عن مقر الحياة
كل هيفاء ان مشت عقد الحب عليها جوًى من النظرات
واذا ما تمايلت بسط الحسـ ـن بساطاً لها من المهجات
علم الله ذلنا في هوانا ودلال الاوانس الفاتنات
فجميع الوجود لم يخل من ذكـ ـرى عذاب المحب للغانيات
فهي أنى صفت يذكرها الطيـ ـر من العاشقين بالآهات
وهي أنى تلفتت مثل الافـ ـق لها من بريقه الزفرات
ليس خفق الاقدام منهن في الار ض لهذا الثرى سوى قبلات
ليس نور النجوم والافق مرآ ةٌ لتلك الدمى سوى بسمات

---

(١) جعل بعضهم الهيام مرتبة من مراتب العشق بعد الوله والوله بعد الشغف والشغف بعد الوجد ثم هذا بعد غيره الى النظر الذي هو سبب الحب والغرام أشدها وكل هذا تقسيم نظري

« ألفات » فان جررن ذيول الا وشي تيهاً رأيتها « لامات »(١)
وهما حالتان في الحسن صارا لمريد التعريف خير أداة(٢)
تلبس القبعات يا ليتها تر حم نفسي من فتنة القبعات
حكت الرمح في القوام فمال الر يش فيها ليحكي الرايات
وكأن قد رأى النسيم عتابا فالتوى من قساوة الهاجرات
زينتها بزخرف الوشي مما قلدتهن من بنات النبات
فهي عش القلوب تسكن فيها بين مثل الثغور والوجنات
ولهذا يقال فينا « على الرأ س » اذا ما أجيب ذو الحاجات
كم تجنى التي أحب وعندي أن بعض العصيان كالطاعات
ان رأتني يدق ناقوس قلبي من جفاها كدقة الأموات
فهي ظلمة الليالي اذا ما غشت الارض والسما هفواتي
أو ليس الظلام يعقبه الصبح وتمحى الآيات بالآيات
غير اني لو كانت الشهب أقلا مي وكان الظلام حبر دواتي
ووصفت الذي أقاسي من الحب وكان الوجود من صفحاتي
لانطوى الكون ثم ابصرت في آ خر أوراقه « البقية تأتي »(٣)

(١) الألف هي الخط القائم واللام هي ألف قائمة ولكن لها ذيلاً واكثر الناس يكتبه مسحوباً لا مقوساً (٢) ال هي اداة تعريف وفي لفظة التعريف هنا تورية جميلة وقد جرت عادة العصر ان لا يتعرف الحسان على أحد الا وهن « كاللامات » التي وصفها الشاعر
(٣) هذه الكلمة وهي (البقية تأتي) من مبتذل الكلام الصحافي يضعونها في آخر كل مقالة لم تتم ولكن الشاعر نقلها بهذا البيان الى درجة يحسدها عليها أرباب الصحف على ما نظن

وقال

فيمن تستحسن تشبيهاته

قالت أرى تشبيهه ينهى بأمري في النهى
فما لها قولوا لها جزت وصالي ضنها
كأنها ما قلت فيـ ـها مرة « كأنها »

وقال

رويداً رويداً نسيم الرياض وحاذر على قلب مشتاقها
يجن اذا أنت اذكرته بضعفك رقة ميثاقها
وكيف وعشاقها ما دعوك تحمل علة عشاقها (١)
فتاة كمشبوبة الكهربا جمالاً وسبحان خلاقها
تراها خلاصة حسن الوجود اذا ما نظرت لاشراقها
فيامن يعذب شمس السماء صباح مساء باحراقها (٢)
دع الحب يكسر من قلبها ولو قدر نعسة أحداقها (٣)

وقال

قلبي معي وقد نسيـ ـت أنه كان معي
يوم نفضت أعيني مستعطفاً وأضلعي (٤)

---

(١) يشير بهذا التمثيل الى قولهم نسيم عليل

(٢) تظهر الشمس في الشروق وفي الغروب كأنها محترقة وهي أم الجمال

(٣) هـذا الكسر مجازي والمراد بهِ التواضع وفي الحديث الشريف ان الله مع المنكسرة قلوبهم

(٤) نفض الاعين هو البكاء ونفض الضلوع هو اظهار كل ماتجنه من الحب وغيره

وما وعيت من جفا ‏ ها غير أني لم أع
تميل ان أعرض لها ‏ فأين ألقى مطمعي
كأن كل موضع ‏ تراه الا موضعي

وقال

أضرَّ بي الهجر حتى ما يطاوعني ‏ وهمي اذا ما توهمت الفؤاد سلا
وكلما قلت في نفسي الحبيب رضي ‏ تمثلت شخصه عيني يشير «بلا»

وقال

يعارض المتنبي في غزل احدى قصائده (١)

عذرها في الصدود للمشاق ‏ أنها ما دعت الى الاشواقِ
وهي لم تخلق القلوب ولا دلـ ‏ ـت عليها نواظر الاحداقِ
سائلوها فأين عقل السُّكارى ‏ أسقاهم ليسرق العقل ساقي
انما أنجم السماء تبعن الشـ ‏ ـمس قدماً لذلك الاشراقِ (٢)

(١) هذه القصيدة هي التي يقول في مطلعها
أتراها لكثرة العشاق ‏ تحسب الدمع خلقة في المآقي
وهذا البيت أحسن ما فيها

(٢) يشير الى ما يسمى بالنظام الشمسي وهو مجموع الاجرام الفلكية التي لها حركات حول الشمس وذلك على رأي كوبرنيكوس الذي ظهر في القرن الخامس عشر للميلاد ان الشمس ثابتة والسيارات تدور حولها على نظام خاص وذلك كله بفعل الجاذبية والارض من جملة هذه السيارات وهي تجيء بعد الزهرة التي هي بعد عطارد ثم يجيء بعدها المريخ ثم المشتري ثم زحل

تُظهر الحسن ثم تسألنا الغضَّ | فليت القلوب غير رقاق
ذلكم وجهها وكيف عن الدينار يُغضي من ضاق بالاملاق (١)
ليس كل امرىء يرى المال في كف | غنيٍ يُدعى من السُّرّاقِ
صاغها الله مثل لؤلؤة البحـ | ـر صفاء وأنجم الآفاقِ
وكما تشتهي دلالاً وظرفاً | وجمالاً في سائر الاخلاقِ
ولكون الكمال لم يُعْطَ للنا | س أتى قلبها بلا اشفاقِ

وقال

بقيةُ قلب كيفما اهتاج لم يكن | لخشيته الالحاظ غير مقاتلِ
يردُّ دويَّ الدهر غير مفزَّع | وتفزعهُ رنّات هذي البلابلِ
ولو خالطت سُمر الأسنَّة لبَّهُ | لما أثرت فيه كمسِّ الأناملِ
وكم في الهوى من معضلات مسائل | وما القلب الاَّ بعض هذي المسائلِ
فقد باد لولا هزَّةٌ في جوانحي | وقدعادلولا ظبيةٌ في المنازل (٢)

وقال

هو الهوى لا طريق للنفوس به | الاَّ التي هي بين القلب والكبدِ
ومن يحب يجد غير الهوى كمداً | والناس يدعون هذا الحب بالكمدِ
كم كابد الحب من ظلم الانام ولم | يزل وسوف يلاقي الظلم للابدِ

(١) تشبيه الوجوه الحسان بالدنانير تشبيه قديم والاملاق هو الفقر

(٢) باد أي فني فالقلب بهذا المعنى معضلة من المسائل لانه ان ظن انه فني فالهزة الضعيفة التي يشعر بها في جوانحه تدل على انه باق . وان ظن انه باق فابتعاد تلك الحبيبة وتعلق القلب بها يدل على انه عندها وانه ليس في موضعه وهكذا تكون المسألة دوراً

وقال

لكِ قلبي فما أرى الحزن حزناً ان تغيبي ولا أرى اللهو لهوا
كاتم الشوق والمحبون بعدي كل نفس وما تشاء وتهوى
أستحي ان أبوح باسمك في النا س لئلاَّ أقبّلَ الاسم سهوا (١)

وقال

يا ويلها زفرَات صب ما طوى صيف الشباب فمن له بربيعِ
سنةٌ على سنة وشهرٌ بعده شهرٍ وأسبوعٌ على أسبوعِ
أجد الزمان من السعود كأنه صكٌ خلامن موضع التوقيعِ (٢)
وأرى مآبي من هواك عطيةً أكآبتي أم ذلتي وخشوعي
هنـد على وجه الليالي مسحة مني كستها حسرة التوديعِ
تجدين ما هزَّت فؤادك رحمةٌ لمصائبي ونوائبي ودموعي
أعطيتِني صفراً وصفراً في الهوى وسألتني عنتاً عن المجموعِ ...

وقال

في نحو هذا التوجيه

(طرحت) العينَ من نومي وقلبي غداة الهجر من أمل التلاقي
وقبلُ طرحتَ نفسي من هنائي وآمال الوصال من اشتياقي
فرحماك انظري من بعد هذا أيبقى غير أصفار الفراق

(١) يريد انه اذا ذكر اسمها تخيلها فلا يتمالك ان يقبل هذا الخيال فعند ما يرى الناس انه قبـل هذا الاسم لان القبلة كانت بعد النطق به يعرفون انه اسم التي لا يريد ان يعرف اسمها ...

(٢) الصك هو ما يسمى اليوم بالسند وهو من غير توقيع لا فائدة منه

وقال ايضاً

أقول لجفنها « والكسر » فيه ... من العدد الصحيح من الوداد
أهذا الكسر من أعشار قلبي ... فقال نم وكسركم اعتيادي[1]

وقال

لي حبيب كأنه الـ ... ماسُ بين المعادن
أسطع الناس نجمةً ... في سماء المحاسن

وقال

فتًى غنجٌ حاكى الفتاة شمائلاً ... وأشبه منهُ حسنهُ الغضُّ حسنها
اذا قلت في تشبيهه ذا كأنهُ ... وأبصرت خديه أقول كأنها

وقال

في ابتسام

تلطفت بالسلوان حتى اطاعني ... وركّبت منـه للصبابة مرهما
جمعت له من ضحكة الصبح في الربى ... ومن برد انفاس الكواعب في الحمى
ومن نفحات هن والوصل والمنى ... اذا ائتلفت لم تبق قلباً متيما
ومن نظرات في السرائر لو اتت ... على كل سر لم يغادرن مبهما
ومن كل حسن في الطبيعة مشرق ... على صفحات النفس في الارض والسما
وقلت لجفني نم وللقلب لا تهم ... فلم يبق الا ان تتوب وتندما

(١) الكسور في علم الحساب على نوعين كسر أعشاري لانه يدل على اجزاء من عشرات وكسر اعتيادي ففي كل من لفظة الكسر وأعشار واعتيادي تورية والاعشار هي قطع الاناء المكسور

ومرت ليال لا الدجى ذلك الدجى ولا ما ارى من انجم كنَّ انجما
الى ان تلاقينا فلما تبسمت رأيت فمي قد خان عهدي وسلما
فعدت الى قلبي اذا هو خافقٌ يكاد من الاشواق ان يثب الفما
فراجعت نفسي اذكر العزم والنهى اذا هي تغريني بأن اتقدما
فما يصنع المجنون والكون كله لدى حسن ليلى لم يقاوم تبسما[1]

وقال

تبدل الحب والحبيب معا والقلب مازال يحمل الوجعا
وكلما ضاق بي الغرام ترى عيني طريق البكاء متسعا
والحب للمرء من سعادته لو لم يلد في فؤاده الطمعا
يكابد القلب حمل هجرهمُ لينتهي امره بما صنعا
والحب للقلب مثل دائرة فكلما دار دورة رجعا

وقال

يا امانيَّ كم بنا من شقاء ومن عنا
كيف سميت روضة لا زهور ولا جنى
كيف سميت جنة وأرى فيك مدفنا
ليس يا نفس علتي وهمومي سوى المنى

(١) المجنون وليلى معروفان والمراد بالمجنون هنا كل من جن بعشقه و بليلى كل حسناء جن بها عاشق . وقد تفلسف بعض الصوفية فزعم ان في العشق اثنين وسبعين نوعاً من الجنون . لانه جاء في الحديث ان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالك الا فرقة واحدة . وهو استنباط حسن ولكن في عصرنا لكل يوم جنون . وفي كل جنون فنون وتحت كل فن سبعون نوعاً أو ثمانون . . . .

تحمل القلب من هنا　　لك وترمي به هنا
للتي ان ذكرتها　　مرة انس من انا

وقال

احب ولكنها غادة　　اذا قربوا الماء منها التهب
فكيف بجسمي على ضعفه　　وما حملتني هذي النوب
فيا رب صير بقية قلبي　　حديداً فان فؤادي «ذهب»

وقال

في نحو الهوى

للحب نحو قد رأيت بدرسه　　أهليه اوزاناً «لجمع القلة»
«والعين» فيه ذات نقط تحتها　　والقلب أنى كان «حرف العلة»
وقوامها الف الوصال فان اقل　　(مالت) وتبعده أجدها «ملّت»
وغريب هذا النحو أن اسم «الذي»　　لم يدع (موصولا) بغير رضا (التي)(١)

(١) التورية في هذه الايات ظاهرة لمن يعرف شيئاً من النحو والصرف وانما نذكر هنا نادرة من عجائب امريكا تناسب هذا النحو الغريب فقد نشر امريكيان اعلاناً يقولان فيه انهما مستعدان لمدارسة الشبان والفتيات (علم الغرام) وسائر (فروعه) المتعلقة به في أوقات معينة . فتناولت احدى الصحف الانكليزية هذا الاعلان ونشرته وعلقت عليه ما يأتي :

ينبغي ان تكون الكلية الجامعة التي تنشأ في أمريكا لمدارسة الغرام في وسط جنة تجمع الحسان من الحور والولدان ثم يكون ترتيب الدروس هكذا : (يوم الاحد) دروس استعدادية (يوم الاثنين) الغزل (يوم الثلاثاء) الشكوى (يوم الاربعاء) التقبيل والمداعبة (يوم الخميس) فلسفة الدلال (يوم الجمعة) تعيين أوقات الوصال (يوم السبت) الامتحان العمومي ...

وقال

طريق الحب

تقول طريق الحبّ وَعرٌ وأرضه — ظنونٌ عليها كل مجد محطمُ
ومن ها هنا تلقاه بالدم مشرقاً — ومن ها هنا تلقاه بالموت يظلمُ
فلا تعتسفه انَّ ايسر ما به — عليك اسى يضني الحشا او تندمُ
ويا ايها العُشَّاق ان كان في الورى — مساكين ما ان يُرحمون فأنتمُ

* * *

بلى ان طُرق الحب أوعر مسلكاً — ولكنني بالحب أدرى وأعلمُ
وماذا يضر الطير في الجوّ ان يرى — وعورة هذي الارض وهو يحوّمُ
فلي من وراء الحب للحب مسرحٌ — وأحزم اهل الحزم من يتكتمُ
كما اهتاج في النفس الكلام فردّلا — يُحَس به حتى تسلمه الفمُ
فيا فتنتي حسبي من الحب رحمة — رضاؤك لي اني عليك أُسلمُ

وقال

في ركوب البحر للتنزه مع الحبيب

ارسل بنا المركب في لجة — نَنشقه انفاس هذا المساء
انّ شراع البحر من يأسه — قد انطوى والنسمات الرجاء
فاهجر بساط الارض نقض الدجى — في غزل تحت عيون السماء
الناس يصغون لالفاظنا — وأيُّ سر في حروف الهجاء
جلّت معاني الحب عن حصرها — من كل نفس بين (حاء وباء) (١)

(١) الحب في التهجئة (حاء وباء) ولكن في معناه لا ينتهي له معنى وهكذا الفاظ العشاق يكون وراءها مما هو في انفسهم ما لا يعرف منها ولا يكون فيها

وقال

فزَعات الحب في نظرهْ   فاسألي بالله عن خبرهْ
كدت من فرط الصدود لهُ   تنزعين الصبح من سحرهْ
ولو أنَّ الطير يعرفهُ   لاستمات الطير في شجرهْ
انظري مُضنى هواك ولو   نظرة الماشي الى أثرهْ
انت في ليل الهوى قمرٌ   وهو ظلٌّ في ضيا قمرهْ
آه من هذا الدلال وما   بين باديهِ ومستترهْ
وتكاليف المدلل اذْ   يتجلى التيه في صورهْ
أنا اضنى ان اعددها   من تأبيه الى خفرهْ
أنا اضنى ان اعرفها   من تصافيه الى كدرهْ
أنا اضنى ان أُحيط بها   من تغاضيه الى حذرهْ
عمُري والله اقصر من   ساعة ابكي على قصرهْ

وقال

عجبت لهزات بقلبي خفيفة   وفي الهزة الاولى تهدم جانبي
وللحب لذات متى هي اقبلت   اخذن على قلبي طريق العواقب
فمن اين ما يممتُ ألقاه جاذبي   ومن اين ما أرتدُ ألقاه جاذبي
وما في الهوى من حيلة غير حيلة   رأيت اسمها الخذلان بين التجارب
وما يصنع العضب المهند ان هوى   على الماء مهما كان ماضي المضارب

وقال ايضاً

اقول لها أُوحي اليَّ رسالة   من الشعر لم ينطق بها شاعر قبلي

فقالت تأمَّل حاجبيَّ فواحدٌ يترجم والثاني رموزالهوى يملي
وأبلغ آيات الهوى قول عاشق خلا الحب يا اهل الصبابة عن مثلي

وقال

رأيتها للتي تمشي بجانبها كأنها البدر في لوح الزجاج اضا
ترنو وتغضي ولي في لحظها أملٌ فكلما قلت وافاني أراه مضى
ياهند هذا الذي سميته غضباً فكيف اعرف مايدعى لديك رضا
ويلاه من أمل يفضي الى أمل حتى يصير به هذا الهوى مرضا (١)
والحب كالجوّ من يصعد اليه يجد مهما ارتقى فيه من بعد الفضاء فضا

وقال

مهاجرة النجوم

لهنَّ على وادي النفوس دبيبُ ففي كل نفس رقة ونسيبُ
يغازلنَ حتى ما يبين لنا الهوى ألفظيَ أم قلبي هناك يذوبُ
نجومٌ هبطنَ الارض فانفتحت لها لتصبح افلاكاً لهنَّ قلوبُ
فأبراجها في النحس صدٌّ ونفرةٌ وبينٌ وتبريح الهوى ورقيبُ
وأبراجها في السعد وصلٌ ورغبةٌ وصدق ووعدٌ في الوفاء قريبُ
وتَعرض ما بيني وبين عواذلي فيكسف وجه للعذول كئيبُ (٢)
فتاةٌ أتت من جنة الخلد للورى وفي ثوبها ريح الملائك طيبُ

(١) لبعض الفلاسفة العشق نصف الامراض . وهو ينظر في ذلك الى تأثيره في الروح وتأثير الروح في البدن

(٢) يشير الى سبب الكسوف وهو تعرض (القمر) بين الشمس والارض

أليس بخديها من الحور قبلة الـ ... وداع ودمع للوداع رطيب[(١)]
يقولون صدت عن بني الحب عفة ... وطهراً كأن العاشقين ذنوب
رأت مارأت من أنجم الحظ فانثنت ... وقد علمت ان الغرام نصيب
فماذا عليها ان يخيب مؤمل ... اذا كان حتماً أنه سيخيب
وعلمها نجم الهوى كيف تنطوي ... قلوب على اشواقها وجنوب
وما ضر من يهوى الحبيب مدللاً ... سوى علمه أن الدلال حبيب
يدير الهوى فيما يشاء عواطفي ... وللحب صوت في النفوس خلوب
كأن فؤادي منبر احدقت به ... ظنوني وهذا الحب فيه خطيب
وابكي بعين ليس تمسك عبرة ... كأن عيون العاشقين ثقوب
ورث فؤادي فهو لا يحمل الهوى ... كأن دبيب الشوق فيه وثوب
وللهجر في نفسي يد مطمئنة ... وأخرى بأحلام الغرام لعوب
هوى وصدود ذاك يأكل مهجتي ... وذا لندى فجر الحياة شروب
فهل يرتوي قلبي وقد نضب الوفا ... وهل ينبت الآمال وهو جديب
تجنت وما في حيلتي غير توبة ... ترد شباب الوصل حين يشيب
ولكن اذا عدت حياتي وحبها ... ذنوباً فيا لله كيف أتوب

وقال

ارتجالاً في معنى عرض له

أنت يامن أحب ان لم تكوني ... فرجاً للشقي او لم تكوني

(١) قبلة وداع الحور كناية عن حمرة الخدين لان هذه الحمرة كأنها أثر لقبلة فراق طويل ويريد بالدمع الرطيب تلك المسحة التي تكون على الوجنات وتقول العامة (خد نادي)

سلوة للحزين أو لم تكوني … دمعة للسرور بين جفوني

فالليالي على الهناء بكاء

انتِ في اعين الخليّ منام … أنت للطفل في الكرى احلام

انتِ في مسمع المشوق سلام … انتِ بين الانام لو لم تكوني (١)

رجمتهم على الفساد السماء

وقال

غدا السحر في عينيك والحب والهوى … فمن أجل ما أعني يقال عيونُ

وهنَّ كقلبي حائرات وتارة … اذا شئت أن تجني عليَّ سكونُ (٢)

فما النجم برّاقاً ولا الظبي اكحلاً … ولا الماس يقسو والزجاج يلينُ

ولا العقل يحكيها اذا ابتسمت رضا … ولا مثلها اما غضبت جنونُ

وكنت مليك السعد يوم عبسنَ لي … فان ضحكت يوماً فكيف أكونُ

بحسبي كلا يوميكِ في الوصل مرة … أعز وأُخرى في جفاكِ أهونُ

على ذاك مرّ الدهر فالصبح ضاحكٌ … طروبُ الصبا والليل بعدُ حزينُ

وقال

في رضاء بعد عتاب

حبيبٌ يرينا قلبهُ ذا قساوة … ويتبعها خوفاً علينا بلينهِ

عواطفه يوم العتاب كأنما … عقدنَ جميعاً «مجلساً» في جفونهِ

(١) قوله لم تكوني في القطعة الاولى أي لم يكن منك وذلك على المجاز أما (تكوني) في القطعة الثانية فهي من كان التي بمعنى وجد

(٢) نظرات الحبيب اذا كانت ساكنة موجهة الى نقطة واحدة فهي أقتل ما تكون وقتئذ

فيأتي هواه ممسكاً بشماله عذاب فؤآدي والمنى بيمينهِ
يقول انظري يارحمة القلب صبهَّ ويارقة النفس اسمعي لحنينهِ
فتحكم هاتيك العواطف بالرضا « وتغريمه » لي قبلة في جبينهِ

وقال

يصف وقفة حسناء

بين الدلال وبين الحسن « محكمة » اليوم « جلستها » والحكم في غدِها
والقلب متهمٌ فيها بسلوته وتهمة النفس فيها من تجلّدِها
ويلي على ذا الهوى ان عشت عشت أسى وان أمت ازعجوا نفسي بمرقدها
هم يذكرون سلوّي للنكاية بي كفتح اجفان مغضي العين أرمدها
سلوا التي اختلفت بين النوافذ والا رفوف كيف رأتني في تردّدها
يدي على كبدي منها وقد وقفت حزينة خدها ملقًى على يدها
ترنو الى الشمس تمضي كالحبيب على وعد فتخجل من اخلاف موعدها
بالله يا كفها رفقاً بوجنتها ان الحياة شعاع من توقّدِها
من عاب سقميَ فلينظر خواتمها ما قام لؤلؤها الا بعسجدها (١)
والحب كالروض أحلوه الزهور فمن صفر الوجوه الى زاهي مورّدها (٢)

---

(١) عبر بالسقم وأراد أثره وهو صفرة اللون

(٢) من العجيب ان اللون الاصفر في الازهار اكثر من غيره فقد نشر بعضهم تقويماً عن الوان الازهار في فرنسا جاء فيه انه يوجد من اشكال اللون الاصفر ٨٠٨ ومن الابيض ٦٨٧ ومن الاحمر ٥٠٥ ومن الاخضر ٣١٣ ومن الازرق ١٥٧ ومن اللون المتقلب ١٣٢ ومن البنفسجي ١٢٢ . فكأن اكثر الازهار عاشقة

وقال

لو خيَّروا المجنون بين العقل مكـ　　تملاً وبين هواجس الوسواسِ
فالصبُّ يعذل ان تجاوز حبـهُ　　قلباً يلين الى فؤآد قاسي

وقال

شجرة الحبيبة

يا دوحة طرحت على أعطافها　　ثوب الربيع مطرَّزاً بظلالِ
يا ليت طيرك كان يعرف ما بنا　　فلعلهُ يفضي لهنَّ بحالي
أوليت نهرك كان يدري علتي　　فلعلهُ يبدي لهنَّ خيالي
حار الشجيَّ فما يلاقي مُسعداً　　فكأنه من غير ذي الأجيالِ
يتعجبون لسقمـه فكأنهُ　　أثرٌ قديمٌ كان في الاطلالِ
يا دوحتي ان تأت هند فذي الصبا　　ريحي وخضرة ذي الربى آمالي
أنا كالسماء قناعةً الا يكن　　بدرٌ رضيت من الدجى بهلالِ
تتقلب الأيام لا أشكو فما　　ما بالنهار تجيء أو بليالي
ما في يديَّ ولا اليَّ ولا بيَ　　ناي الهوى يجري ولا بشمالي
يا هنـد ماشاء الغرام فانما　　لهوى القلوب طريقة الاطفالِ
ما يمنعوا طلبوه حتى بالدمو　　ع وكلهم عما لديه اسالي

وقال

خطَّ هـذا الحب مقبرة　　ليَ بين الهمّ والترحِ
كل يوم يدفنون بها　　ميتاً من جانب الفرحِ

وقال

في الحسن والردى

شيئان قد خفيا على الالباب في　　كل الأنام وما عرفت لماذا
حسن الغواني والردى ومن العجا　　ئب ان ترى هذا يجرُّ لهذا

وقال

تعرض الخدّ لعيني　　ليذوب الفم حبا
ارحمي قد كاد قلبي　　من في يخرج غصبا

وقال

بي غادة لم يشك هزّتها　　الا انا والقلب والقرطُ
سخطت فصدّت والتوت ونأت　　يا رب ايّ فعالها السخطُ

وقال

في رواية له

لو ان جرح القلب يغسلهُ　　ماء الغمام العذب والبحر
ويكون مرهمه نسيم صبا　　من بين مايتفتح الزهر
ويلف في قطع يمزقها　　بيديه من انواره الفجر
لرأيت هذا كله عبثاً　　وعلمت ان دواءه الصبر

وقال فيها

هاتوا العناصر من نار مؤججة　　ومن تراب ومن ماء ومن ريح (١)

(١) هذه هي العناصر الاربعة على ما كان معروفاً قديماً أما اليوم فقد أبلغها العلماء باكتشافهم الى ما فوق السبعين

هاتوا السما ونجوما في جوانبها مثل الحرائق او مثل المصابيح
هاتوا التعاسة هاتوا كل فاجعة هاتوا الممات يريني نزعة الروح
فكل هذا على نفسي أخف أذى من قلب عاشقة في الارض مطروح

وقال

الزمان معترك لِيَ أي معترك
متَّ ياهوى صغري يوم كنت كالملك
فادفنيه يا كبدي في السرور والضحك

وقال

بين الغرام وبين الحسن لي نظر طول الزمان رمى حديه بالصداء
فاستنبئي الهجر عني والبكاء وما يعد حزناً فكل الحزن من نبإي
سترحمين ولكن حين لا أملٌ ان يروي الماء من قد مات بالظماء

وقال

على شفتيك علقت الاماني اذا انت ابتسمت تحيتينِ
وأجفى ما يكون الحب ان لم تحركه الشفاه بنسمتينِ
واظلم ما يكون العمر ان لم يضيء فيه الشباب بوجنتينِ
فيا ثوب الصباح اذا تدلى وزر على السماء بنجمتينِ
أظنك بعض آمالي لديها وقد أسفت عليه بدمعتينِ
ويا عين الصبا في الروض ترنو وتنعس فيه بين الزهرتينِ
أظن الورد قبل وجنتيها فأثر في مكان القبلتينِ

وقال

في حسناء تنكران لها عاشقين وفي صدرها وردة حمراء

رأيت على صدر المليحة وردةً … عليها لانفاس القلوب حفيف
ومن تحتها في الصدر مالست قادراً … على وصفه لكن أقول قطوفُ
فقلت لها لاتنكري بعد عاشقاً … فان شهود العاشقين وقوفُ
ألم تنظري اوراق وردك قدحكت … جفوناً وكلٌّ أحمرٌ ونحيفُ

وقال

على قلبي دللتهمُ … فمن دلَّ على أجلي
ويا أملي بوصلهمُ … سلام الله يا أملي
تحيلت لقربهمُ … فقربت الردى حيلي

وقال

في النظرة الاولى

أقول لها كلي لحسنك عاشق … فلِمْ ذا بدأت الحب بالعينِ والغَينِ
فقالت رموز العشق فيك كثيرة … لذا أتهجاهنَّ حرفينِ حرفينِ

وقال

في تشبيه الحسناء بالبدر

اخطأ من شبهها ضلةً … بالبدر ليس الكل كالبعض
فتلك ان تسفر تصن حسنها الا … نفوس في منزلة العرض
والبدر لما لم يجد عاشقاً … القى بذاك النور في الارض

وقال

يا ليل رد الطيف عن مضجعي أخاف أن يغرق في أدمعي
وفتش الفجر لعل الصبا قد سرقت سرّيَ من أضلعي
انا لما بي يا نجوم السما فاحترمي الموت ولا تلمعي
لم يبق من قلبي سوى لوعةٍ عرفت منها أن قلبي معي
وليس في نفسي سوى حسرة قد خلفتها لذة المطمع
يا من عذلتم اهل هذا الجوى أغضبتم القلب على المسمع (١)
لو كان فيكم عاشق موجع رثيتم للعاشق الموجع
وكيف ان لم تجدوا لوعة تدرون ما بالواجد المولع
ما انتمُ في العذل الا كمن يشير للانجم بالاصبع
قالوا الهوى يا ليت هذا الهوى شخص تراه العين في موضعٍ
نشكو له او نشتكي ظلمه او نتجنى الظلم او ندعي
وغادة فيها دلال الصبا ان قلت اني عاشق تفزع
وهبتها الروح فقالت اذنْ أضيعها قلت لها ضيعي
وزاد هذا الدلُّ حتى غدت ان ذكروا اسمي عندها تجزع
قال لها الحب اكلتُ المنى من قلبه قالت ولا تشبع
فقال اني قد سلبتُ الهنا من عيشه قالت ولا تقنع
يا حيرة الانفس في حبها لم يترك الحبُّ لها ما تعي

(١) ذلك لان العذل يسقط من الاذن فيؤلم القلب

وقال

نسيم الحي

هو الليل فيما كنتُ اعهد انما ... تجاذبه شوقي اليك فمدهُ
سئمت تخلت الصبح لامبتداله ... ومن همّ في أمر تخوف ضدهُ
فيامن يمل الهم بادئ بدئه ... تذكر اذن اوساطه ثم حدهُ
وقالوا نسيمٌ قلت من حيه اذا ... وجدت على حر الحشاشة بردهُ
فلما شممت الورد من نفحاته ... علمت يقيناً انه مس خدهُ

وقال

الشمس والشمس

قلت يا شمس الضحى بي غادةٌ ... هي أنت غير أن لم تبنِ
ولعينيها شعاع كلما ... قابلته مهجتي يلذعني
ولحبّيها بنفسي لوعةٌ ... حوّلت كل المنى للشجن
فسرور الناس ان قدر لي ... صار في قلبي أشدَّ الحزنِ

***

بكت الشمس لأجلي دمعةً ... هي ذا البدرُ الذي أرّقني (١)
ونسيم الصبح قد جففها ... فامّحت من صفحات الوسن
ذاك ياهند وقد أُنسيتنا ... فكأن الحب تحت الكفنَ
مرّ ما مر وكم من قائل ... ليت ما كان اذن لم يكن

(١) تشبيه البدر بأنه دمعة من الشمس آية في لطف الكناية

وقال

ارحمي

عاشقاً في كمدِ　　مُستطار الكبدِ

وعده كل غدِ　　منك حتى الابدِ

وارحمي

قلبه ان يقفا　　حسرةً او أسفا

لوعةً او كلفا　　فالذي مرَّ كفى

وارحمي

أن يزيد اللعب　　والجفا والغضب

فهناك العطب　　وهواك السبب

وارحمي

من جفاك المسقم　　بعض روح في دمي

ولساناً في فمي　　طالما قال ارحمي

وقال

أيبقي الهوى مني على أي حالة　　سوى ما ترى من هيكل متهدم

فها أنا في أهل الغرام من الضنى　　كآثار عض في يد المتندم

خفيت فما يجلو النهار بنوره　　ظلال نحولي وهي من صدإ الدم

ويا عجبي لا الشمس تسطع لي ولا　　سواها ويجلو ظلمتي ضوء مبسم

وقال

روض الكواكب قد جفَّتْ أزاهره　　فطار من قفص الاصباح طائرهُ

له جناحان اما يرتمي بهما   فاول الجوّ في عينيه آخرهُ
قدعششت للوجود الشمس بينهما   كما تعشش في قلب خواطرهُ
ضموا الى الشمس قلبي ان باطنه   نارٌ وان يك مجّ النور ظاهرهُ
قلب غدا عالمًا في الكون منفرداً   وما معاني الهوى الا عناصرهُ
تصرَّف الوجد فيه بين منبسط   وقابض منه حتى قلت ساحرهُ
يا ايها الحب ان تسحق فؤاد شجٍ   فامزجه بالدمع اذ تهمي محاجرهُ
واكتب به في تواريخ الزمان فتىً   قضى بحب فلان وهو هاجرهُ
آه عليه وآهات اذا انصرفت   ممالة اللحظ عن وجهي نواظرهُ
من لي به وانا حيٌّ ومن لِيَ أن   تكون من بعض اكفاني مآزرهُ
تشم روحي منها فوق عالمها   ريح الزمان الذي كانت تجاورهُ
عسى يكون الى جنبي قتيل هوى   مثلي تهزّ بقاياه مقابرهُ
وكل دهر يطيب المرء مبتهجاً   به فاكثره طيباً مآثرهُ

وقال

كم قلت آه ولم يخلص بها نفسي   كأن بعض زوايا الهم تخفيهِ
وكم بنفسي شوق حين يخطرفي   ثوب الرجا تعلق الاذيال بالتيهِ
وفي ضلوعي فؤادٌ حين تحمله   كف المنى وترى ما فيه تلقيه
قلبٌ لقد عاش لو لا ما يزهده   منها وقد مات لولا ما يمنيهِ
يا قوم هل حيلة في هجر غاضبة   حتى على نظر للصب يلهيه
وتكرهُ البدر لاغيظاً ولاحسداً   لكن لأنا رأينا حسنها فيهِ

وقال ايضا

أقول آه فترى أنني ... كالطفل مما ليس شيئاً بكاه
والله لو ينطق صخر لما ... خاطب هذا الحسن الا «بآه»

وقال

ربّ هل من ملك يوحي الرجاء ... فلقد ضقنا بشيطان الشقاء
كل شيء في العذاب هين ... ان تلهّى القلب عنه بالعزاء
ضحكت لي الارض عن بدر هوى ... فاضحكي عن نجم سعد يا سماء
أنا أهوى ملكا من طهره ... حل في القلب كما يجري الهواء
هي ضوئي فاعذلوا ان تجدوا ... أعيناً تبصر من غير ضياء
يا نعيم النفس ما أبغي سوى ... أن أضيء القلب من ذاك الرواء
ان آمالي وما يخرج من ... فمك الطاهر في الحب سواء
انظري العين فقد باحت بها ... وكلام القلب للقلب البكاء

وقال

حبيبٌ اذا ابصرته اضطرب الهوى ... به فكأني باللحاظ هززته
وساء له العذال عني وعن هوى ... يقولون من تشويقه قد عرفته
فقال نعم قد شقته ليت انه ... أضاف (ولو عيني) وقال عشقته (١)

وقال في رسالة

وما أنسَ يوم البين من هند أنّةً ... تطاير منها بانفجار الهوى قلبي

(١) الفرق بين لفظتي شقته وعشقته هي العين وقول الحبيب عن محبه (عشقته) لا يساويها شيء

فلم تك منها «آه» غير شرارة　　من الشوق مست فيَّ فتيلة الحب

وقال

في كتاب من حبيب

كتبت لي سلامها فكأني　　نلت منها سلامةً من زماني

فوق رق كأنه صفحة المر　　آة فيها أطلت العينان [1]

قبَّلته نخلته ورق الفـل　　عليهِ تحية البستانِ

وطوته نخلته صفحة الخد　　تلظت بقُبلة الولهانِ

بيراعٍ كأن « ريشته » اما　　يشقُّ القلوب حد سنان

أخذوه من الرياض وقد شا　　هد فيها محاسنَ الحيوان [2]

فهو اليوم ان تكلم عنها　　سفهَ الواصفين للغزلانِ

وقال

أيهتدي الطيف الى رقادها　　لعـله يسأل عن ميعادها

أعـد أيامي وايام الجفا　　نقصانها داع الى ازديادها

مثل الأفاعي انكمشت وانما ا　　نكماشها يكون لامتدادها

هنَّ الغواني كل صب عندها　　كالصفر لا «يجمع» في أعدادها

واهاً لازهار الربى في حسنها　　أن لا ينال النحل من شهادها [3]

---

(١) يريد سواد الحروف في بياض الورق كما يظهر سواد العينين في صفاء المرآة

(٢) الحيوان هنا اسمه جنس يشمل كل أفراده

(٣) الشهاد والشهد واحد والمراد هنا مادتهُ التي تكون في الزهر واطلاقه عليها من المجاز

وبي التي يأبى لها جمالها أن تصدأ الالحاظ في أغمادها[١]
ترى حياة العاشقين تنطفي ولا تملُّ النفخ في رمادِها
يَستَنِدُ القلب الى اقترابها وقربها يعثر في بعادها
آه على أسرار ذا الغيب أما أقدر ان أنظر في فؤادها
لا تعجبوا ان رقَّ فيها غزلي كرقة النفحة من أبرادِها
فليس الا زفراتي وأنيـ ني والهوى يخلط في انشادِها

وقال

في حسناء مخضبة الكف تحمل زهرة من البنفسج

يا غادة ثوبها كوجنتها وحليها مثل أدمعي دُرَرُ
والحسن لا تنتهي مناظره للعين الا اذا انتهى النظرُ
فضحت بالزهر حب ذي شغف فاحَ بأسرار قلبه الزهَرُ
بنفسجٌ في يد مخضبةٍ كالخدِّ فيه من عضةٍ أثرُ
ضاع شذاه بكل ناحية كأنه منك بيننا خبرُ
سليه عن عفتي وعن شغفي فانه من مزيجها عطرُ
سليه عن رقتي وعن طربي فحسنهُ من روائها نَضرُ
سليه عن فتكة الغرام بنا فلونهُ من عذابها كَدرُ
تلهين بالعاشقين لاعبةً كأنهم في صحيفةٍ صُوَرُ

وقال

غرست الهوى حتى اذا أثمر الهوى وحان جناهُ مرَّت الثمرات

(١) هذه كناية عن تقليب نظراتها كأنها تستعمل الالحاظ دائماً

وما طمعي أن يحلوَ الحب بعدما   سقاهُ دم الاكباد والعبراتُ
فيا أسفا للروض لا أينع الجنى   ولا نفحت أرواحه العَطِرَاتُ[1]
ويا لهفة الزرّاع زاغت عيونهم   ببرق وولّت عنهم المطِرَاتُ
ويا حزني والدهرُ مازال كالحا   وللحظ في آفاقه عثراتُ
جزعنا وما مرّت من الهجر ليلةٌ   فكيف اذا مرّت بنا العشراتُ
وفينا قلوب كالورى غير أنها   لكثرة ماحملن منكسراتُ
واعمارنا طولى ولكن طُرُقها   بما شوّقتنا الحور مُختصَراتُ
ونحن بمغناطيس ذا الحب كالذي   تخدّره من غيره الخطراتُ[2]
تراه اذا ما نام مُستَسلِمِ القوى   وتفعل ما شاءت به النظراتُ

(١) ألف يا أسفا هي ألف الندبة أو هي مقلوبة عن ياء المتكلم وأصلها يا أسفي .والارواح جمع ريح وقولهم أرياح خطأ

(٢) يشير الى التنويم المغناطيسي وقد ثبت ان الفاعل فيه هو توجيه الفكر وتحديد النظر

الباب الخامس

في

الاغراض والمقاطيع

قال

في أغراض مختلفة

كففت عن الدنيا يدي ولساني ... وهمي ولكن الجموح عناني
فما برحت خيل الليالي تردني ... اذا نشبت حرب الهوى لمكاني
عفا الله عن قلبي فلولا اضطرابه ... بهذا الهوى ما اهتز فيه لساني
وللقلب عهد ينزل الجسم عنده ... على حكمه من عزة وهوان
فما حدثتني النفس يوم عظيمة ... فشمرت الا زلت القدمان
اذا عشق الانسان قص جناحه ... وهيهات للمقصوص بالطيران
ومن ضيعة الاعمار أني أرى الهوى ... اماني لا يتبعن غير أماني
ولو أن لي عمرين عشت متيماً ... بعمر وكلفت الزمان بثاني
ولكنما الدنيا رياض وأهلها ... ثمار على اغصانها لأوان
وفي كل يوم رجفة من فجيعة ... وهل بقيت دار على الرجفان
فان لمتموني بالزمان وأمره ... معي فأروني أين شخص زماني
ولو أن هذا الدهر للعز لم نكن ... نسلم للدنيا بغير ضمان

تقطع قلبي كل قسم لحادث　　كأحرف رمز قطعت لمعاني [1]
وذلك تاريخ الحياة شرحته　　بشعري ومن قلبي يفيض بياني
اذا قلبته النفس يوماً تخشخشت　　صحائفه سمّوه بالخفقان
سيأخذه مني الملائك بعد ما　　يصان بجلدين هما الكفنان
فياليت يمحى منه « باب فلانة »　　وان لم يكن سوءا « وباب فلان »
ولكن هذا الحب نار تسعرت　　وأيّتما نار بغير دخان
وان عبت قلبي بالهوى وهو طبعه　　فعب قرص هذي الشمس باللمعان

وقال

في صاحب لا يكتم

ولي صاحب أودعت سري حلمه　　ولم ادر ان الحد فيه جريح

(١) أحرف الرمز هي الاحرف التي يتواطأ عليها بين اثنين أو جماعة اصطلاحاً على تعبير مخصوص يتفاهمون به فيما بينهم ويعرف هذا النوع عند الافرنج (بالكريبتوغرافيه) وهو قديم في التاريخ اكثر ما كان يستعمل في الحروب ولم يكن الا كتابة ثم اصطلحوا في القرن الخامس عشر وما يليه على استعمال الارقام وجرى ذلك الى اليوم واكثر من يحتاج اليه رجال السياسة

ولهذه الكتابة طرق مختلفة وهي تكون بالكتب والتلغراف والعلامات كالمصابيح في البحر ونحوها ولم يكن هذا الفن ذا قواعد عند العرب كما هو اليوم عند الافرنج حتى وضعوا له المعجمات الخاصة ومما ورد من ذلك ان ملكاً أرسل رجلاً يتجسس أحوال عدوه فوقع أسيراً بينهم ثم أمر ان يكتب الى ملكه ان العدو ضعيف وانهم قليلون فكتب في ذلك كتاباً جاء في آخره :

« قد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك نصحت فدع ريبك ودع مهلك » ففطن الملك الى ان المراد بالقلب العكس وان مقلوب الجملة الاخيرة نصحت الخ هكذا « كلهم عدو كبير عد فتحصن » ومثل هذا عنهم قليل

متى مسه مني على غير ريبة   أذى خطأ أمسى بذاك يبوحُ
أراه « فُنُغرافاً » فمن مس ابرة   وان صغرت في جانبيه يصيحُ

وقال

في رجل متقلب يكون مع كل انسان بوجه

وجوهك شتَّى واحد ذو بلاهة   وآخر من هذي البلاهة بارد
ووجه أرى فيه النفاق ملوّناً   وآخران يبصر ذوي الفضل حاسد
ووجه من الكيد المخبأ بارق   ووجه من اللؤم المشهَّر راعد
فياعجباً تمشي بستة اوجه   مع الدهر بين الناس واسمك واحد[1]

وقال

وهي متنوعة الاغراض

زمان على حاليه غير مذمم   وأحلى الهوى في المغضب المتبسم
تقلّبنا طوعاً وكرهاً صروفه   ومن لم تقلبه الحوادث يسأم
فمن فرح كالوعد في فم غادة   الى ترح كالخلف في قلب مغرم
وثغر الهوى ان دام يبسم للفتى   سلا ومتى يضحك شبابك تهرم
ولي صبوة لم يعصر الهجر ماءها   ولا كدرت يوم اللقاء بمأثم
صقلت بها قلبي فكم مر حادث   يفل المواضي وهو لم يتثلم
ورقت بها نفسي على كل فاجع   ومهما جهدت الماء لا يتضرم

(١) انما جعل الاوجه ستة لتطابق الجهات الست المعروفة وهي الامام والخلف واليمين والشمال وفوق وتحت

وأعرضتُ عن خل رأيت لسانه من اللؤم مثل الظفر غير مقلَّم (١)
اذا لم يكن حراً فلست بنادم وان كان حراً عاليَ النفس يندم

***

وبي غادة ان تبتسم خلت أنها على حسنها مخلوقة من تبسم
تكلفني صبراً وما الصبر هين وهل نال نجماً من رأى ضوء انجم
على زفرة لو أنشقوها لنائم رأى انه في مارج من جهنم (٢)
يقولون أخرج من فؤادك حبها وكيف انقي الحب ياقوم من دمي
وما نزل الحسن السوي بسلم الى القلب حتى ترفعوه بسلم (٣)
خذوا خطرات الفكر عني لعلني اغالط نفسي بعدها بالتوهم
والا فما أذهبتم الشوق ان انا اقرّ به قلبي وانكره فمي
بربك يا هند اجمعي بين مهجتي وبين شهود من جفونك واحكمي

(١) هذه الكلمة جامعة لكل صفات اللسان البذيء، لان الظفر اذا لم يقلَّم كان طويلاً قذراً حاداً وهي أشهر تلك الصفات

(٢) رأى من الرؤيا وهي الحلم. ومن الغريب في أمر هذه الاحلام انك لو أدنيت من جفن النائم مصباحاً لرأى انه ينظر في نومه الى حريق مضطرم ولو أدنيت شيئاً حاراً من قدمه لحلم انه يطأ على النار ولو نضحته بدفعة من ماء بارد لخيل له المطر والبرق وما أشبه ذلك

(٣) الحسن السويُّ التام

في المديح والتقريظ (١)

قال

وكتب بها الى استاذ الادب ، وفخر البيان في لغة العرب ،

الشيخ ابراهيم اليازجي الشهير

نظرت اليَّ فقلتُ يا قلب اتقِ ... وتقول بالألحاظ للقلب اعشقِ
وأصده عنها فتجذبه وان ... قلت اسكن تنظر اليهِ فيخفقِ
يا قلب ما في الحب الاذلة ... ان مس خاطرها عزيزاً يطرقِ
وصبابة ان مسَّ جفني نائم ... ريحٌ تمرُّ بها عليه يأرقِ
هل للغواني موعد يعرفنهُ ... الا مقالة سوف يوماً نلتقي
ومتى ودهري أحمق يأتى لنا ... من صلبهِ الا بيوم أحمقِ
واذا تعاقل دهر حرٍ مرة ... فهو الغراب متى تفاصح ينعقِ
لو أنه أعطى الرجال بحقهم ... لأحلَّ ابراهيم عين المشرقِ
خرس الزمان لنطقه وأرى له ... قلما متى أوحي لاخرس ينطقِ
يهتزُّ في تلك الأنامل هيبةً ... كالبحر يلعب موجهُ بالزورقِ
قلمٌ اذا الأقلام صحن ترى له ... صوت البنادق بين صوت البندقِ
وتراه ان وشَّى السطور أتى بها ... مثل الشباب على بياض المفرقِ
أحيي لنا اللغة التي قد شوَّهوا ... من خلقها فكأنها لم تُخلقِ

(١) هذه القصائد والمقاطيع كان لها باب مخصوص في الجزئين الاول والثاني ولكننا أثبتناها هنا لقلتها وهي مرتبة على تواريخ نظمها

وأباحَ من ثمراتها ولقد أرى غُصناً بكف سواهُ لما يُورقِ

* * *

مولاي هذي بنت ساعتها وخيـ ـرٌ من كتاب لفظةٌ لم تُطرقِ
ان قصرت عما أريد فانما كلماتها انفاس وقتي الضيقِ
وحديث يوم من لسان منافق ادنى وأقصر من تحية شيقِ

وقال

وبعث بها الى نادرة الفلك العلامة سليمان افندي البستاني

معرب الالياذة الشهير

سِرّهُ فيها قد انهتكا فاذا مرّ النسيم شكا

* * *

ناحلٌ لولا تنهدهُ وفؤادٌ فوقه يدهُ
ودموع منه تسعدهُ ظنهُ العذال قد هلكا
وهو انلاح الصباح لهُ ورأى شمس الصباح بكى

* * *

ظلمته وهو ما ظلما حملته وهو ما سئما
حبها والبعد والسقما تركته وهو ما تركا
وطرق الحب واسعة ربما ضلت بمن سلكا

* * *

أنا من نفسي ومن زمني والهوى والهجر والحزن

مع هذا الهم والوهن　　أعزلٌ قد خاض معتركا
يا سليماناً وأنت لها　　ذي يدي فامدد لها يدكا

⁂

أنا در ما له صدفُ　　أنا سهم ما له هدَفُ
أنا قلب مضه أسف　　أنا جوٌّ نير حلكا
وأرى نجمي على قلق　　فكأنْ قد هاجر الفلكا

⁂

أيها الشرق المنير أما　　قطرت فيك القلوب دما
ثم اجروا في الدم القلما　　فغدا نخر العلوم لكا
ليت شعري كيف صرت وما　　نطق طير كيف قيل حكى

⁂

عصبة الشرق اذا فقدوا　　« فسليمان » له سندُ
هو فرد تحته عددُ　　وهو رأس المال للشركا
وكنوز البحر جوهره　　وان البحر امتلا سمكا

⁂

هو في الاقلام قائدها　　هو في الاعلام واحدها
هو في الاخلاق بين بني　　آدم قد مثل الملَكا

وقال

وبعث بها الى العلامتين الفاضلين منشئي مجلة (المقتطف)

تقريظاً لدخولها في السنة الحادية والثلاثين

وصلتما نسب الشرق الذي قطعت　　كف الليالي بأهليه الأُولى سلفوا

وردّتما وجنتيه بالشباب وقد غشاهما من صدا ايامه كَلَفُ
كم بات ينظر مرآة الزمان فلا يرى بها غير آثار لما وصفوا
وما الذي جاءه من كل قاصية وظل يبحث في الآثار «مكتشف»
وانما عدم الشرق الرجاء بنا فبات ينقب في «احشائه» الاسف
تخاذل القوم حتى لو تُسائل عن معنى الوفاق لضلّوا فيه واختلفوا
وانتما في جواب الخاذلين لهم بعقدة الرأي تلك اللام والالف (١)
العلم في طرف من غرب روضكما وللسياسة من شرقيه طرف
وبين هذين روض مثمر فكهٌ داني الجنى ولهذا قيل «مقتطفُ»
لو أن للعلم شخصاً كنتما ملكيْ أعماله ودليلي هذه الصحف

وقال

يقرظ خطاباً في التربية ألقته السيدة الاديبة جوليا ابراهيم حنا

وأجادت في القائه والايماء به ماشاءت الاجادة

نطقت فالبيان يقرع أذناً والمعاني الى القلوب خفافُ
بكلام كأنه صدفاتٌ فلهذي النفوس منه اختطافُ
عنده الناس في المديح سواء ولهم في سواه بعدُ اختلافُ
انت «ياجوليا» اذا قلت قولاً لم يكن للنفوس عنه انصرافُ
فهو الطهر والفضيلة والعز ة والمجد والتقى والعفافُ

---

(١) اللام والالف لا ينفكان ويضرب بهما المثل في التلازم والاتحاد وهذان الفاضلان مثل حيّ في ذلك

وقال

يهنئ صديقه الطبيب الرمدي الشهير اسكندر بك جريديني بزفافه

وبعث بها اليه لاقتصار الحفلة على ذويه مراعاةً للحداد

يا عروس الطهر فوق السحبِ
ظاهراً منها وشاحُ الذهبِ (١)
في التماع النيّراتِ الشهُبِ
في ائتلاف الخمرِأم الطربِ
في ازدهاء القطر فوق العشبِ

***

ارقبي الشمس لدى مشرقها
وانزعي الاكايل عن مفرقها
وخذي الصافيَ من مُونقِها
قبل أن تستر من رونقها
برداء الارجوان القشبِ

***

واجمعي من كل روض نَفَسا

(١) الوشاح ما تُقلده المرأة متشحة بهِ فتطرحهُ على عاتقها فيستبطن الصدر والبطن وينصبُّ جانبه الآخر على الظهر حتى ينتهي الى العجز ويلتقي طرفاه على الكشح الايسر فهو من المرأة في موضع حمائل السيف من الرجل . والمراد بوشاح الذهب ما يتموج من تفاويف السحاب

واخلعي عن كل زهر ملبسا
واجعلي ديباجه والاطلسا
وحريرَ الياسمين الاملسا
حلة تكسو عروس العجبِ

***

ثم جيئي الطير في تلحينها
وخذي الانغام من تلقينها
واسمعي الغدران في أنينها
واسألي الالحاظ عن رنينها
في فؤاد المستهام الوصبِ

***

فاذا أتممتِ هـذا أجمعا
فاصحبي العفة ثم أسرعا
وأتيا في الارض بدراً طلعا
ثم قوما في زفافه معا
بين هاتيك الحسان العرُبِ

***

فضعي الاكليل في حليته
وانشري الانفاس في حلّته
واجعلي الالحان في نغمته

واخلفي الشاعر في كلمته (١)
انها قبلة خد الأدبِ

***

بارك الله بتحقيق المنى
للعروسين وزاد في الهنا
وأدام الحب موفور الجنى
لنرى الحسناء امَّ الأمنا
ويكون « اسكندرٌ » خير أبِ

ابيات عبقرية

وبعث اليه صديقه المذكور بالابيات الآتية

ايها « الصادق » في وداده والفتى البارع وابن البارع
طمعت في ودكم نفسي وما انا بعد « المصطفى » بالطامع
واذا الأوغادراموا الحط من رفعتي لاشك انت « الرافعي »

فكتب اليه

كلمات تلك ام ذي أعينٌ جعلت قلبي لها كالخاضع
أشرفت مثل فتاة لفتى تلك في القصروذا في الشارع
وهي للود الأقانيم التي ما لها في عدها من رابع (٢)
يا طيب العين هذي « قطرة » من دوا جفن القريض الدامع

(١) الكلمة هي القصيدة والشاعر لم يكن موجوداً هناك بل بعث بقصيدته
(٢) الاقانيم هي الاب والابن والروح والمراد الاشارة الى عدد الابيات

فاقبل التقصير من عيني فتى غضها في ذا الضياء الساطع

وقال

مقرظاً رواية الشعب والقيصر التي عربها صديقه الأديب

جورج طنوس

« طنوس » قد أرسلتها نفثة تهزأ بالسحر ومن يسحرُ
وقطرة من قلم مبرق غمامه في أرضنا ممطرُ
بدت لنا من أفق نيّر وانت هذا الأفق النيّرُ
بين الروايات لها دولة كأنهنّ « الشعب والقيصرُ »

وقال

وبعث بها الى ابن عمه الشاعر الناثر عزتلو عمر بك تقي الدين الرافعي

لو كنت تعلم ما يكون نصيبه لم يستملك عذوله ورقيبهُ
ردّ السلام عليه أيةُ ريبة فيمن يُسلّم مرّة وتجيبه
وكفى تعانده الطبيعة كلها حتى لأوشكت الحياة تذيبه
فالنجم مكتئبٌ عليه سهاده والأفق مغبرٌّ عليه شحوبهُ
والغصن ميأس القوام يغيره والأيك صدّاح الهزار يريبهُ
والروض ممتزج به نفس الحبيـ ـب ولا يكون الى المحب هبوبه
لاموه فيما ضرّه ما ضرّه الا ملامهم وتلك ذنوبهُ
ياقوم ان جرح الطبيب مريضه فكفى عزاءً ان ذاك طبيبهُ
ما قال آه لا يقول صيانة لحبيبه كي لا يقال حبيبهُ
وفضيحة المشتاق أهون عنده مما تُكنّ من الغرام جنوبهُ

كالنار ذاع دخانها ملء الفضا … والجمر مقتصرٌ عليه لهيبهُ
ماعدَّ في الشعراء من لا يحتذي … شعري الى «عمر التقي» نسيبهُ
أتمثل الآداب فيه فينبري … لعجيبهنَّ من البيان عجيبه
خُلقٌ تولى الله جمع شتاته … فالفضل اجزآه وذا تركيبهُ
واليكَ ياعمرٌ تحيةَ وامق … اهدا كها بيد الزمان أديبهُ

وقال

في صوت وتمثيل صديقه بلبل العصر الغرّيد والممثل الشرقي الفريد
الشيخ سلامه افندي حجازي الشهير

صوت حواه وأبقى منه باقيةً … لغيره فحواها البلبلُ الغردُ
تغايرت فيه أنواع الغناء فمن … تلقيه بالحجازي يشتكي الرصدُ
ان قال آه لحزن خلته ملكاً … يقول الله والانشاد يطَّردُ
وكم له أنَّة في موقف غزلٍ … يكاد يخلق منها للهوى كبدُ
وكم يشير الى حسن فتحسب أن … قد هزت القلب في مهد الضلوع يد
وكم له نظرات هنَّ من طرب … بين النفوس وأسباب الهوى عقدُ
اذا تلاهى حسبت اللهو شيمته … حتى يثور فتدري أنه الأسدُ
مثل النسيم فبينا تلتقيه صبا … في رقة الصبح اذ تلقاه يتَّقدُ
ياواحد الشرق في التمثيل دمت له … حتى يرى الغرب أن الشرق منفرد
زففته لكمال ليس ينقصه … الا قرائح من كتابنا تلدُ
يعرّبون وهم يا خجلتا عربٌ … كأننا ما لنا عصر ولا بلدُ
ياقوم ذا جسد الشرق انطوى فمتى … نفختم روحكم ينهض بها الجسدُ

وقال

وقد بعث بهما الى الأستاذ الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده

لك اليدُ يخشى الظالمون يراعها ... وان مُدّت الأيدي فما فوقها يدُ
وأفحمت أهل الشرك حتى كأنما ... مدادك مما يجلب الخزيَ أسودُ

بورآرثر (١)

قال قبل سقوط هذه المدينة الحصينة في الحرب الروسية اليابانية
وكان الروس محصورين فيها

حصن اذا ذكروه مثلوا الاملا ... كأنما الدهر في تشييده عملا
الانس داخله والجن خارجه ... والموت بينهما ما انفك ممتثلا
بنوه مثل بروج النحس واعتصموا ... به وما علموا أن اغضبوا زُحلا
يا صاحب (الروس) ما اغنى الجنود اذا ... تعلموا الحرب أن يغدوا لها مثلا
رميت بالجيش صخراً ليس ذاوهن ... ولو رميت به (الصيني) لما احتملا
وظل اسطولك الميمون ممتنعاً ... كالنجم لا عيب الا انه أفلا
أما الحصون فقد مالت الى غزَلٍ ... فكلما لزم الباب امرؤ دخلا
(وبورت أرثر) قد كانت محجبّة ... تبغي لها بطلاً لا يشبه البطلا
فما لها كشفت عن صدرها فغدت ... أشواق عاشقها تأتي لها شعلا (٢)

---

(١) كان فتح هذا الحصن عجيبة من عجائب الحروب وقد سقط بعد نشر هذه القصيدة بأيام قلائل وذلك بعد أهوال مسطرة في التاريخ

(٢) اشارة الى أخذ اليابانيين الحصن المعروف بنمرة ٢٠٣ وهو مفتاح المدينة فلم يشرفوا عليها الا منهُ

وأول الوصل ان يبق الحبيب على ... شرط الاباء ولكن يمنح القبُلا
كانما أرضها من طول نفرتها ... قد استحت فغدت محمرة خجلا
وقلبها صخرة لو ان نسمتها ... مرت على قلب صب عاشق لسلا
وما اليها ولا منها سوى رسل ... من النفوس وكل أكثروا الرسلا
ماذا استطاع امرؤ يلقى معاديه ... بحيلة فيرى من مثلها حيلا
وما التمنع في حصن أحاط به ... قوم أظافرهم قد تحفر الجبلا
في الجو والبحر قد طاروا باجنحة ... وبالسفائن ماشيهم قد انتعلا
فهم سيوف وهم نار وهم أسَلٌ ... تلقى السيوف وتلقى النار والأسلا
وان يعد الرجال الصيد بينهم ... يعد ناشئهم في غيرهم رجلا
قوم طباق الثرى ان مرة فزعوا ... ردوا الزمان لما شاؤوا وان غفلا
لاتزدهيهم حياة يحفلون بها ... ذل امرؤ بحياة النفس قد حفلا
وكيف يفلح من يمضي الى أجل ... يوم الوغى بفؤاد يحذر الاجلا
يا منهضي الشرق نصر الله يتبعكم ... وان كفرتم فما بالكفر من خذلا
سرُّ الانام عقول في رؤوسهمُ ... والله أكرم من أن يخذل العقلا
ان الصبي ولا ايمان اطهر من ... ما بين جنبيه من ذا عده بطلا
وما لذلكم الاسطول مضطرباً ... يطوف بالارض حتى افزع الدولا
أظنه شاعراً ما أن يلذ له ... من (بورت ارثر) الا ان يرى طللا
مشى على الماء رطباً من (نضارته) ... فكلما هب ريح نحوه سعلا [1]

(١) يشير الى حادثة مراكب الصيادين التي ضربها الاسطول ظناً انها من أسطول الاعداء

وكلما ذكروا (توجو) استخف به وسوف يعلم من (توجو) بما جهلا[1]
مثل الغراب تولى عند مغربها يبني الى عشه في طيره السبلا
وكان في الافق نجم حين قابله جناحه بخوافيه اختفى وعلا
فقال اسودها ما بال ابيضها وقد نفخت بعيداً عنه قد ذبلا
فليحمد الله اني لو قذفت له ملء الجناحين ريحاً لانطفا عجلا

***

يا قائد الدولة الجاري بطائرها نصيحة لك امهل سفنها مهلا
من جرب البحر فليهنأ بساحله ومن يخف لجه فليحمد البللا

ابن القيصر[2]

يا نفوس الوغى لقيصر قولي ان نجم السعود داني الأفول
قد أتينا من السماء وكنا في غمار الجيوش قبل قليل
أبلت الحرب كل جسم علينا فرمينا به الى عزريل
أيها القيصر العظيم أناةً ان عمر الزمان غيرُ طويل
تأمر الدهر ان يذل أناساً أتراه لديك مثل الذليل
وتريد القضا اليهم رسولاً أعليه أجريت رزق الرسول

(١) توجو هو قائد الاسطول الياباني الذي أدهش العالم بمهارته

(٢) نشرت احدى المجلات الانكليزية مقالة ذكرت فيها انهُ لما كان اميرال اسطول البلطيق يعرض على مولاه القيصر حالة الاسطول قبل القيام لنجدة بورارثر ويفصل له جميع قواه من النسافات والطرادات والمدرعات وغيرها قطع القيصر عليهِ كلامهِ قائلاً أتدري ان وزنه اليوم ١٤ رطلاً فدهش الاميرال وقال أي وزن يا مولاي قال وزن وليّ العهد . فكان الاميرال في البحر والقيصر في البرّ

أنت تقضي بالنصر حكماً ولكن ... ورا الغيب مجلس التبديلِ

***

قال تاج الملوك أيتها الرو ... ح امثلي يُراع بالتهويلِ
أنت شر الأرواح أقبلت من شر ... مكان وبين شر قبيلِ
أنا ان شئت فالقضاء كلامي ... وعناد القضا من المستحيلِ
كيف أخشى النحوس تظلم واني ... نجمُ سعدي وغرةُ المأمولِ
أو أهاب الزمان يدبر واني ... بهناء الزمان خير كفيلِ
أو اظن الخطوب تشكل واني ... نورُه في الخطوب خير دليلِ
أو أخاف الرياض تذبل واني ... زهرٌ ناضر من التقبيلِ
وجهه الدهر والحياة وذا الملـ ... ك وكل مُشبهٌ بجميلِ
انما النصر ثغره وابتسامٌ ... منه خير من صارم مسلولِ
ولكم في البحار أسطول حرب ... وعلى اذرعي ارى «أسطولي»

***

غضبت عندها النفوس وقالت ... نحن في الزمر والهوى في الطبولِ
قد فتحتَ السبيل للموت فينا ... بين اقدامهم وتحت الخيولِ
انما الجند انفسٌ وجسومٌ ... وهي الحرب «معمل التحليلِ»

***

ماغناء الدنى واصغر طفل ... غالبٌ حبه كبارَ العقولِ

وقال

بعد عقد الصلح بين الدولتين وقد كسفت الشمس يومئذ

الى القيصر

فتحت لالحاظ السيوف جفونها　　وكان لها بين النفوس دبيبُ
وأسكنت ريح الموت في فلواتها　　وكانت كدهري ركدةً فهبوب
وأقررت في الارض السلام لاهلها　　وكان كحظي جيئة فذهوبُ
وأطلقت من بعد الدما الماءَ سلسلاً　　على تلعات الرزق فهو خصيبُ
وأمسكت كف اليتم عن كل أسرة　　فعاد لاهليه ابٌ وقريبُ

☆☆☆

وغى وسلامٌ للمطامع والهوى　　وان قيل اوثانٌ وقيل صليبُ
بخستم بلاد الشمس في النصر حقها　　كأن لم يكن يومٌ هناك عصيبُ (١)
كأن الدماء الحمر ماء على الثرى　　وتلك الشعوب الصفر فيه حبوبُ
فقد غضبت شمس السماء لقومها　　وكادت عن الدنيا لذاك تغيبُ (٢)

---

(١) تلقب اليابان بالشمس المشرقة والصين بالمملكة السموية وكوريا بمملكة الصباح وكلها في الشرق الاقصى ومثل هذه الالقاب الشعرية مستفضية هناك

(٢) عقد الصلح في يوم ٢٩ اغسطس سنة ٩٠٥ وكانت الشروط مجحفة باليابانيين وكسفت الشمس يومئذ ومن الغريب ان حادثة مثل هذه الحادثة وقعت منذ ٢٤٩٠ سنة وذلك على ما روى هيرودتس المؤرخ انهُ في سنة ٥٨٥ قبل الميلاد كانت الحرب دائرة بين الماديين والفرس وبيناهم في القتال اذ أظلمت الشمس بغتةً فذعر الجيشان وحسبوا أن آلهتهم غضبت عليهم لهذه الحرب فآذنتهم بانقضاء العالم ان هم لم يكفوا وما لبثوا بعد ذلك ان اصطلحوا

وقال

في تقلب الدهور على مصر

يا مصر من لك في الزمان ومن ترى   للمقعدين اذن من المتوثب
ضحكوا اليك وصافحوك خديعةً   فذهلت عن ناب هناك ومخلب
قوم هم « غزل السياسة » ان رنوا   ذهبوا بقلب الارض كل المذهب
غضبوا الان الشمس تغرب وحدها   لم لا تسير بشرقها للمغرب
غرتك من ضوء التمدن لمعةٌ   انَّ النحوس لتستظلُّ بكوكب
فطلبت أيسر مطلب ومن النهى   أن يمنحوه جزاء اصعب مطلب
أجرمت او لم تجرمي من بعدها   فالذنب معروف وان لم تذنبي
ان الحوادث مرُّها وكرورها   ضربت عليك مذلةً أن تغضبي

⁂

قولوا اذا الأفعى تفصَّل ظهرها   ماشئت ان تتقلبي فتقلبي

وقال

بعد حادثة دنشواي وقصاص المتهمين

نظرتم الى العدل في امرهم   واغفلتم رحمة العادل
نعم قد غسلتم دما بدم   ولكن صبغتم يد الغاسل (١)

وقال في غرض

لكل ذي همة حالٌ يغالبها   وربما عركته سورةُ الحالِ
ولي همامة نفس صاح صائحها   فانذر الدهر منها يوم اهوالِ

(١) لفظة الصبغ هنا مضمنة معنى التدنيس وما شابهه

أقحمتها سرة العلياء وانحرفت عن الاكافيف اشفاقاً على التالي (١)
وعزمة هي ضرس الدهر ان اخذت طريقها لعدو أو لمختال
أظمأت منها الليالي فهي ما برحت تخال كل صباح نبع سلسال
وفكرة كمدار النجم جارية بالسعد في أمة من غرّ اقوالي
ترمي بمنفتق الجوّ الاشعة من قلبي فيحسبها الراؤون آمالي

***

ورب ذي كلمات بات يبغضني لما تقدمته في السلّم العالي
وما الفقير الذي تلقاه منزوياً عن العيون بأطمار وأسمال (٢)
مرمّق العيش لا مال يميل به الى الحظوظ ولاحظ الى المال (٣)
وانما هو ذو الآمال عطله زمانه ويراها حلية الحالي
والشعر منه جديدٌ كالقصور وما قديمه فاعذروه غير اطلال

وقال ايضاً

أنا للهوى والحسن مذ صرت شاعراً أنفت لان أدعى من الشعراء
فهم خلطوا انفاسهم في هوائهم وما غير أنفاس الحسان هوائي
أسيّر من قلب لقلب خواطري وهم بين مدح في الورى وهجاء
فياليلة ألقت عليّ نجومها ظلاماً وفي اطرافهنّ ضيائي
رماني في ظل الفناء سكونُها وأعطيتها من ذاك طول بقائي

---

(١) سرة العلياء وسطها والاكافيف حيود وطرق تكون في الجبل
(٢) الاطمار والاسمال الخرق البالية
(٣) مرمّق العيش لا يكاد يجد ما يسد الرمق

سكنت لاطراقي وفكري وحيرتي فلا انا في ارض ولا بسماء
كأنيَ سر للقضا او كأنني افكر في معنى لسر قضاء
وبتُّ يقول النجم عنيَ سائلاً اذا أثرٌ باق من القدماء
مكانَكِ الا أن تحركني الصبا لشعر فهآتي عند ذاك لوائي

وقال

نصبت للحظ في الشرق الصراط لكي يمضي الى جنة في العيش او نار
فلم يكد يتخطى فوقه قدما حتى تعثر في فضلي وأشعاري

وقال

يخاطب بعض الكتاب

أساءك الدهر ولا أقبح من سيئته
حظك في اليراع كالـ مجرم في مشنقته

وقال

في نحو ذلك

مافي اليراع لاهل الشعر فائدة الا كما رفعت كفٌّ لتسليم
هم الملوك ولكن في السما ولمن يبغي هنالك منهم ألف اقليم
يشبهون (من الافلاس) انجمها دراهماً فهي فيهم اجر تعليم
وهان ملكهم فالناس لو قبلوا باعوا النجوم لهم الفاً « بمليم »

وقال

قل للعداة وفي بصائرهم عمى هل تبصرون وحكمتي مصباحُ
صيحوا فان الجو متسعٌ وكم من قبلكم فيه الورى قد صاحوا

عدُّوا عن الاقلام كم فيكم فتى يهذي ويحسب انه افصاحُ
ما كاد يحسن أن يقلم ظفره حتى توهم انه « جرَّاح »(١)

وقال

حُسدتُ ولكني علوت ونكسوا فلم ير غير الظل من هو حاسدُ
كنجم السما نوراً وعزاً ومنعةً وفي الارض قد قامت عليه المراصدُ

وقال

براغيث الاعراض

أرى قوماً لئاماً لم يرعهم وقار المجد في القوم الكرام
سفاهتهم ترجح في اعتقادي بان الخرس أولى بالكلام
وهم حشرات أهل الارض جاءت لاتمام التناسب والنظام
فلست أراهم في الارض الا براغيثاً لاعراض الانام

وقال

وفيه نوع جديد من البديع سماه ضرب المثل من المثل

مرَّ في ارض لؤمه وهي شوك وجنى منه كل ذم ومَيْنِ
يبتغي أن أجيبه وأراه مثلما تبصر القذارة عيني

---

(١) الجراح يحتاج الى علم خاص وأدوات خاصة والطفل الصغير يستطيع ان يقلم ظفره بيده ومما يصح ان يكون مثلاً لهذه الطائفة ان نحوياً خاصم آخر في دين له فرافعهُ الى الامير فسألهُ الامير ما دينك عليهِ فقال درهمان . ومد الالف كثيراً ونطق النون بغنة فقال خصمه اصلح الله الامير ان هي الا ثلاثة دراهم ولكنهُ ترك من حقه واحداً لظهور الاعراب . . .

كم تمنى والشوك في قدميه انه عائد بخفيّ حنين (١)

وقال

في الشكوى

بت أبكي من الزمان ونفسي مقلتي والمنى دموع بكائي
لا من الارض في يديَّ ولا غيـ ر لحاظي تنال وجه السماء
آه من خيبة يجيء بها النحـ س على شؤمه بلا استحياء
آه من غدرة الرجال وما يضـ مر غدراً لا قلوب النساء
والذي ضلَّت العقول وحارت فيه أن الظلام صنو الضياء
ضقت حتى لقد أرى الارض طرساً والبرايا عبارة استهزاء (٢)

وقال ايضاً

حملت أربعة وقد لازمنني همي وجلدي والهوى وثيابي
حتى عرفت فتى رماه شؤمه فاذا به قد عدَّ بين صحابي
ان قيل عني البدر فهو دُجُنَّتي أو قيل عني الصبح فهو ضبابي
فعددت اربعتي لاعرف شؤمه من أيهنَّ فقال زد وعذابي

(١) قيل ان حنيناً هذا اسكاف من أهل الحيرة ساومه اعرابي بخفين ثم انصرف ولم يشترهما فالقى حنين أحدهما في اول طريقه والآخر في آخره فمر الاعرابي بالاول فتركه فلما رأى الآخر أناخ راحلته ورجع ليأخذ الاول فركبها حنين وطار بها فرجع الاعرابي الى قومه بخفي حنين. وقيل في أصل المثل غير ذلك والمثل الذي انتزعه الشاعر ظاهر المعنى

(٢) للفلاسفة والحكماء في هذا المعنى تعبيرات مختلفة ولولا ان هذه العبارة شعرية وان الشعر «مذهب واسع» لكانت من المنكرات ونحن على كل حال نستغفر الله

وقال

انا من الدنيا ومن ذا الهوى يغالب الموت عليَّ الحياه
كالنبت في شاطئ نهر متى نما قليلاً حاربته المياه

وقال

السعد في فلك النحـ ـس بالغُ منه حزنه
أنى تقلب في الافـ ـق فهو واللون لونه
مثل الغراب سواءٌ ظهر الغراب وبطنه

وقال

في شرقي يلبس قبعة كبيرة

فوق رأس الثقيل قبعة الغر ب كأن لم تكن لذا الشرق أمَّه
كوَّروها وقيل قد رفعته في زمان ما فيه للفضل ذمه
ويحَ هذا الزمان اصبح لحناً نَّ ألم (يرفع) الثقيل (بجزمه)

وقال

في رجل ذي لحية طويلة

ذو لحية من شؤمه طالت كسو ءالحظ واليوم العصيب وشبهه

(١) الزجاجة المدخنة تستعمل لرؤية كسوف الشمس في أوله لانها تكسر أشعتها . ومما يروى في طول اللحى الغريب انه كان مع المهدي رجل من اهل الموصل يقال له سليمان بن المختار وكانت له لحية عظيمة فذهب يوماً ليركب فوقعت لحيته تحت قدمه في الركاب فذهب عامتها . فقال فيه بعض الشعراء

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمينا

سوداء لم تحك الزجاج مدخنًا   الا لتظهر لي (الكسوف) بوجهه

وقال

في بعض الاغنيا الثقلاء

دعوا باردًا قد سود البخل قلبه   بما فيه من حرص على البيض والصُّفر
فلو مس ميزان الحرارة وجهه   لأهبطه ذاك «البرود» الى الصِّفر

وقال في غرض

اسميك الحبيب وذا زمان   تناسى اهله معنى الحبيب
وتدعوني الاديب وذي بلاد   تغافل اهلهن عن الاديبِ
وليس بضائري من جهل قومي   اذا لم يعرفوا قدر اللبيبِ
فما كل اللحاظ اذا ترامت   تطل من العيون على القلوبِ

وقال

يؤرخ ميلاد بنته وهيبه [1]

يا عروس الشعر أهلًا   ثم اهلًا بالنجيبه [2]

---

(١) للشاعر تواريخ كثيرة كلها جيدة كهذا التاريخ ولكنه حذفها مع ما حذفه من شعره

(٢) كان اليونان القدماء يعتقدون ان عرائس الشعر بنات جيبتارو متاموزين إلهة الذاكرة وكن في اعتقادهم إلهات العلوم والفنون وهن تسع الاولى ترأست فن التاريخ والثانية فن الروايات والاهاجي والثالثة فن الروايات الفاجعة والرابعة ترأست الاشعار الرقيقة والمراثي المحزنة والخامسة للمنظومات في الفخر والفصاحة والسادسة لعلم الهيئة والفلك والسابعة للقدود الموسيقية والثامنة للرقص والتاسعة للموسيقى والحانها . ولكل منهن اسم ورسم وعلامات مغايرة للاخرى

يوم ميلادك عيد الـ قلب يابنتي الحبيبه
قلت في تاريخه زيـ نتِ بيتي يا وهيبه
سنة ١٣٢٣

وقال

في حسناء تلاعب هرة

لاعبت هرتها ياهرة قبلي في يدها ذاك السوارا
أنت ان قبل فوكِ يدها أتمنى انني أصبح فارا

الفلاح في الصباح (١)

هات يا «محمود» لي المحراث حالا وضع الآن على الثور الحبالا
يا «عليّ» قم فخذ هذي الجمالا للسباخ قارب الصبح الطلوع

***

أنت (ياخضرة) قومي فاحلبي (ياسماحي) قل (لزينب) اذهبي
وخذي خبزاً ومشاً لأبي ثم أرسل (هانماً) ترعى القطيع (٢)

***

يا الهي كن بعوني واكفني شر اطماع (الخواجا) واهدني
للرضا وبالقنوع أغنني عز من كان غنياً بالقنوع

(١) اقترح هذه القصيدة على الشاعر الاستاذ الدكتور صرّوف صاحب المقتطف الاغر وطلب ان تكون على هذا النحو من البساطة في التركيب والتعبير وفي نية الناظم ان يصنع ديواناً صغيراً على هذا النمط لطبقات الشعب المصري

(٢) يشير بكثرة هذه الاسماء الى كثرة اولاد الفلاحين وهي النقطة العمرانية المهمة

***

رب بارك في نبيّ اجمعين ... وكن اللهم لي خير مُعين
واكفنا أدواء هـذه السنين ... ان من لم تكفه انت يضيع

***

قال بسم الله ربي وخرج ... والصباح لجج فوق لجج
والضياء كالأماني في المهج ... والدجى في مهبط النجم صريع

***

والنبات في غرام بالصبا ... نمي ان تأبَ عليه قربا
وهو ان تقرب تولى وأبى ... والندى في أعين الزهر دموع

***

ذلك الفلاّح سلطان النشاط ... في يديه صولجان من سياط
وله اين مشى الزرع بساط ... وهو في مملكة الخلق وضيع

***

ملك لا يعرف الهم ولا ... يبتغي بكل عيش بدلا
لا يقول ليت قلبي قد خلا ... من همومي اوخلت منه الضلوع

***

فتحت شمس النهار عينها ... فرأت في مسرح الارض أبنها
قائماً يسأل من كوّنها ... ان يكون العام ميمون الربيع

***

فرمت في الارض مثل الذهب ... وأشارت للفتى ان تدأب

أعطك الخير جزاء التعب　　فانحنى بالفأس يظهر الخضوع

*

كل فلاح على ذلته　　كتب التاريخ في جبهته
ان هذا المرء من حرفته　　عاش في الدنيا الوضيع والرفيع

وقال في بعضهم

كم من سفيه أنتهي من أمره　　ويعود يبدؤه فما ان انتهي
كالكلب في الاسواق يضرب رأسه　　بالعظم وهو بما تألم يلتهي

وقال

اشدُّ عذابي من بني الدهر انني　　ارى ذا اسى مما دهاه ينوحُ
وان فؤادا كل شيء مؤثرٌ　　به أثراً مهما يعش لقريحُ
فقد صرت من ضغط الهموم على دمي　　كأن عروقي في الحياة جروحُ

وقال

لا يغرّنك في الجمال ودادٌ　　ان هذا الندى اذا سال جفاً
كل كف تريد حفظ الدنانير　　وهيهات تلزم الدنانير كفاً (١)

وقال في بعضهم

قلبت في نعم ولم　　يخطر بقلبك الانقلاب
وحسبت همك قد مضى　　واليوم همك ذا الحساب
ان المعلم ان نسى　　شيئاً فما نسي الكتاب

(١) هذا التشبيه لا ينطبق الا على الوداد الذي يكون منشؤه الجمال الظاهري وهذه الحقيقة حرب بين فلاسفة العمران وفلاسفة الاخلاق

وقال

في روايته « موعظة الشباب » عن لسان فتى الرواية[١]

بعد انقلاب حاله من العز الى البؤس

لقد صار شيطان الرذائل حائرا　　بذا القلب يخشى التيه بين قفاره
ألا فانظروا الانسان كيف اقتداره　　وكيف تحار الجن عند اقتداره
مضى ما مضى لم يبق الا مصائب　　والا سواد العمر بعد نهاره

وقال

في مغربي فيها يستحضر الارواح

يستحضر الأرواح تأمر بالفسا　　د وانما هي روحه تستحضر
روح كأخبث ما يكون تصاعدت　　من قلبه ولنتنها تتبخر[٢]
اياك لايغرُرْك نور جبينه　　وصلاحه وانظر الى ما يُضمر
فالمرءُ ذو خبث ولكنا نرى　　عينيه في وقت الظلام تنوّر

وقال فيها

ان كنت ذا عقل وعندك حيلةٌ　　فهما اليدان لطالب الحاجات
هيهات تقدران يقول الناس خذ　　من غير ان تحتال قبلُ بهاتِ

(١) هذه الرواية هي اول رواية تمثيلية مطبقة على درس الاخلاق العصرية وهي فوق ذلك تمتاز بروح الشعر الطائفة في كل معانيها وستطبع قريباً بعد تمثيلها ان شاء الله

(٢) استحضار الارواح أمر كان من الشعوذة في الزمن القديم ويقال انه صار حقيقة ثابتة في هذا العصر وله كتب مؤلفة فيه وهو شائع في أوروبا وامريكا ومن عادة المغاربة انهم اذا شرعوا في الاستحضار أطلقوا البخور

المراثي (١)

اول الدمع

وهي أبيات نظمها ساعة قرأ نعي شيخ الشعراء صديقه المرحوم

محمود باشا سامي البارودي

وددت ولا والله ما نفع الودُّ فياليت هذا النجم اذ غاب لم يبدُ
وياليت « يامحمود » اذقضي الردى وجاء كتاب الموت أنى له ردُّ
زمانٌ كما أبصرت لاالنفس تفتدى بمجدولا يُفدى بنفس امرىءٍ مجدُ
وليس وجود الخلق الا ذريعة لفقدهم بعض الوجود هو الفقدُ
وما جارت الدنيا ولا جار ربها ولكنَّ غايات الأُمور لها حدُّ

(١) كل الشعراء قد درجوا على وصف الموت بصورة محزنة وقد كان قدماء اليونان يمثلونه مع النوم تارة راقدين على صدر أمهما وتارة على هيئة شابين بأعين فاترة أو منطبقة وفي يد كليهما مشعل ملتهب النار ثائر الدخان وليس في هذا التمثيل ما يدل على فظاعة . وأول من مثل الموت بصورة تبعث الخوف وتُلقي الرعب هو « ابريد » اليوناني فقد مثله متشحاً برداء أسود وقد أتى ليترشف من دماء الضحايا المذبوحة على القبور وكان ذلك بعد عصر الشاعر هوميروس الشهير ثم توسع الشعراء والمصورون في هذا المعنى وساعدهم على ذلك جبن الحضارة حتى صار الموت كما يصفه شعراء اليوم آية الاحزان وشقاء بني الانسان

خزنت الدموع الحمر دهراً ولم اكن أحاذر أن العهد يعقبه عهدُ (١)
فما هي الا أحرف من نصلها على خيط هذي العين فانتثر العقدُ
وهز فؤادي ذلك الخطب هزة رأيت لها ركن الجوانح ينهدُّ
فيا مصر لا تبقي على القول عبرةً وخلي لتجديك وصف الهوى نجدُ
ويا روض قد طار الهزار لجوّه فقل لعصافير الربى بعده تشدو
ويا ناسجي الشعر الذي أخلق البلى رويدكم ما مصر في العُجمة الهندُ
سددتم علينا كل فج بلفظة يلين لها في بأسه الحجر الصلدُ
فان تجدوا للشعر ريحاً زكيةً على شبه منه فما كالدم الورد (٢)
اذا فلَّ حد السيف فاسأل به الوغى أقام مقام السيف في الساعد الغمدُ
وفي كنف الرحمن «يا سامي» العلى فما ثمَّ الا نعمة الله والخلدُ

وقال

يرثي فقيد الحكمة المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي مصر

وكان لموته يوم مشهود

سكتَّ وقد ضجّت لك الثقلان وأغضيت والابصار في رجفانِ
فويحي متى تصغي اليَّ مناجياً وويحي اذا أدعوك كيف تراني
أمانٍ وآمالٌ ودين وحكمة ذهبت بها عنا ببضع ثواني
ضبطتَ عنان الحادثات فأمسكت وخلّفتها تجري بغير عنانِ

---

(١) المراد بالعهد عهد البكاء ويفسره قوله خزنت الدموع الخ

(٢) أي ان ما ينظمونه هو شبه الشعر لا الشعر نفسه كما ان الدم فيه شبه من الورد بحمرته ولكن لكل واحد منهما رائحة هي ضد الاخرى

وكنت أمان الرأي من عثرة الهوى … فمن ذا له من بعدها بأمانِ
وكنت لنا في أمة الشرق أمةً … فيا ضعفها كيف تنفردانِ
وكنت رجاء الدين فالدين ساكن … ولكنه قد عاد للخفقانِ
سنعرف ان مدَّ المدى عمَّ تنجلي … وغى فقدت من راحتيك يماني
ونسمع ان طار الجدال بفتنة … عن الصارخ الهاذي بغير بيانِ
ونبصر اما غيَّم الشك مرة … بوارق أفكار بلا لمعانِ
ولا بد منها انها النار أطفئت … وما بعد طفء النار غير دخانِ

* * *

«محمد» قد هيلت لمصرعك الورى … أقاصيهم فوق الثرى وأداني
ولو أنه يوم تدجَّى ظلامه … لكشَّفه عن أفقنا القمرانِ
ولكنها من ظلمة الحزن والاسى … وذل لمن أسعدتهم وهوانِ
فقد كنت من عين الزمان وسمعه … بحيث غدا يخشاك ذانِ وذانِ
حفظت لجنبيَّ الفؤاد فما له … تفلَّق عنه بعدك الصدفانِ
وكنت لدهري جدَّةً فمساؤه … واصباحه من بعدها خلقانِ
وكانت علوم الناس في الدين والدُّنى … كحبل ومنه عندك الطرفانِ
فهل تتغانى بعد فقدك أمةٌ … على فقرها لمَّا تجد لك ثاني
بكائي على فكر خفضت جناحه … على الموت حتى عيَّ بالطيرانِ
بكائي على تلك الخواطر قد هوى … بها فلكُ الدنيا من الدورانِ
بكائي على ذاك اليراع ممدَّداً … وكم خط عنه لفظه الملكانِ
تفرَّد بالايات عن كل كاتب … ولم يشترك في زهره غصنانِ

ولهفي من داء يفيض به الهدى وكيف يجفُّ البحر للسرطان (١)
على أنها الدنيا تجر الى الردى فمن عجل فيها ومن متواني

وقال

يرثي فقيد الاسلام، وفقيه الانام، عمه المرحوم الشيخ عبد القادر
الرافعي الكبير مفتي الديار المصرية وكان قد تولى الافتاء
بعد الشيخ محمد عبده فما لبث أن هنأه الناس
حتى قضى رحمه الله

الدهر طِرسٌ ونحن الاحرفُ السود والموت آخره والعمر تمهيدُ
وذي الليالي بلاغاتٌ مُحبَّرة جناسُهن الأماني والمواعيدُ
عيشٌ وموت وما الاثنان في نَسَق فواحد منهما لا شك تقليدُ
ويح الفواجع قلب ساكن وبه في العلم زلزلة فالعلم مهدودُ
ويح العجائب دهرٌ في التقى هَرِمٌ يطويه يوم درى بالامس مولودُ
ويح الحوادث من ظل رمين به على المنى وهي بيضٌ فالمنى سودُ
الموت صدق ولكن في روايته بين الفواجع قد ضاعت اسانيدُ
كتابه للورى حق ولو قدروا استغفر الله قالوا عنه « مردود »

***

يا نائماً في ظلال الخلد ملتحفاً وفوق نعشك نور الله ممدودُ
انظر فذي الارض تجري من مدامعنا والجوُّ من زفرات الناس مسدودُ
في النفس فاجعة في القلب قاطعة في اللب رائعة في العقل تشريدُ

(١) مات المرحوم بعلة السرطان

يا ويح فتيا الورى جاءتك قاصدةً ومن سواك لهذا الامر مقصودُ
رأى لك الله زهداً وهي طامعة فالحد بينكما بالموت محدودُ
تبغي المجرة أن لو ألحدوك بها وان بعض دراريها جلاميدُ
فان قبرك فخر للتراب بما يحويه من كل معنًى فيه تخليدُ
وانما الارض جيد والقبور لها عقد ومثلك درٌّ فيه منضودُ
سيلثم الفجر ترباً أنت فيه عسى يُلقَى على الصبح نورٌ منك مشهودُ
ويطلع الليل في ثوب الحداد وفي جفون انجمه من ذاك تسهيدُ
فاذهب الى الله في كفيك مصحفه وسنَّـةٌ كان فيها منك تجديدُ
وخلفك الرحمات الغر صاعدة بها لألسنة الكونين ترديدُ
عليك في الارض نوح للانام وفي جوار ربك للاملاك تغريدُ
وانما هي ايام لها ولنا ما دام يتبع المفقود موجودُ

﴿ تمّ الديوان والحمد لله هو الاول والآخر ﴾

تقاريظ

قال

حسنة البيان ، وبديع الزمان ، وآية البلاغة الناطقة بالاحسان ،

صديقنا الحميم ، نابغة العصر حافظ افندي ابراهيم

أراكَ وانت نبت اليوم تمشي — بشعرك فوق هام الاوَّلينا
وأوتيت النبوة في المعاني — وما دانيت حدَّ الاربعينا
فزن تاج الرئاسة بعد « سامي » — كما زانت فرائده الجبينا[1]
وهذا الصولجان فكن حريصاً — على ملك القريض وكن أمينا
وحسبك ان مُطْرِيَكَ « ابن هاني » — وانك قد غدوت له قرينا

وقال

صديقنا نابغة البرازيل المجيد ، وأديبها الفريد ، قيصر ابراهيم معلوف

صاحب ديوان تذكار المهاجر الشهير

ذهب الورى أن الأوائل لم تَدَع — لبني الزمان من المعاني مبتكرْ
حتى نشرت عليهمُ « يا مصطفى » — آياتِكَ الغرَّا فكذبت الخبرْ

---

(١) يريد رئيس الشعراء المرحوم محمود باشا البارودي وقد كان رحمهُ الله يقرظ كل جزء من هذا الديوان فنحن نضع في مكان تقريظه من هـذا الجزء طلب الرحمة والكرامة له من الله

ديوان شعرك فيه كل بديعة — لنظير آيتها ابن بُرْدٍ ما نظرْ
ان يشتهر بالقول غيرك انه — بقصيدة سمح الزمان بها اشتهرْ
لكن شعرك كله « يا رافعي » — من معجزات الشعر والدُرَر الغُرَرْ
فات المدى المتشدقين بانك ال — ملك الذي يعنو البيان اذا أمرْ
لو كان « أحمد » عالماً بك ما ادعى — حق التنبيء ظاهر لك كالقمرْ

وقال

كوكب الشعر الساطع في سماء المعاني ، والاديب الذي يتعلق كلامه بالنفوس كأنه من الاماني ، نجل عمنا الفاضل

عمر بك تقي الدين الرافعي

بُعثت بالحق لمن نازعوا — بسحرهم موسى وما ضارعوا
ألقيت ما يلقف من افكهم — يراعة كوكبها ساطعُ
فأبطل السحر وما يعمل السا — حرُ برهان لها قاطعُ
وحسبها (الصادق) فيما أتى — مؤيداً اذ كلهم خاضعُ
ألقى من الحكمة ألواحها — فجلّت الحكمة والصانعُ
طرازه الاول في شعره — وغيره الثالث والرابعُ
فلتهنَ هذا الشرق (يا رافعي) — وليَهنك التوفيق والطالعُ

وقال

الشاعر المفلق ، والنجم المشرق ، نجل عمنا الاديب

محمد افندي محمود الرافعي

بلغت بالسبق يا ابن السادة الصيد — في حلبة الفضل شأواً غير محدودِ

زنت القريض بما يعيا الفحول به — مما ابتكرت ومن رأي وتسديدِ
كان شعرك فيما جئت من طُرَفٍ — نفح الازاهر او ماء العناقيدِ
كأنني حين أتلو آيهِ ثملٌ — يهتز نشوانَ بين الناي والعودِ
لوأدركوا كُنه ما ألفت من دُرَرٍ — في سلك نظمك ألقوا بالمقاليدِ

(تنبيه) وقعت بعض أغلاط في هذا الجزء تدرك بالبداهة